بحث محكم | قسم الدراسات الدينية | 07 نوفمبر 2019

لقاء النبيّ محمّد بالمفارق

محمّد النوي
باحث تونسي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2019
All rights reserved © 2019

لقاء النبيّ محمّد بالمفارق[1]

1 ـ يمثّل هذا العمل الفصل الأوّل من الباب الثاني من كتاب "الوحي من خلال مصنّفات السيرة النبويّة قديماً وحديثاً"، تأليف: محمّد النوي، ط1 2018، منشورات مؤسّسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، ص ص: 209-248.

الملخّص:

مدار هذا الفصل على دراسة حدث لقاء النبيّ محمّد بالمفارق من خلال نماذج ممثّلة لمصنّفات السيرة النبويّة قديماً وحديثاً، وذلك باعتماد المقاربة التفهميّة للنصوص، فضلاً عن اعتماد المقارنة والمقايسة بينها للوقوف على ما فيها من تطابق في الأخبار أو تنافر يصل إلى حدّ التضادّ التامّ. والقصد من هذا المبحث هو محاولة تعيين أسباب اختلاف كتّاب السيرة في تصدّيهم لهذا الحدث المحوري في تجربة محمّد.

ففي مرحلة أولى، سعى المؤلّف إلى تحديد إطار اللقاء المذكور أعلاه، فأشار إلى حدث تحنّث محمّد باعتباره ممارسة تعبّديّة ورياضة روحيّة. ففيه تتنزّل رؤاه. ونجم هنا خلاف عميق بين كتّاب السيرة: هل إنّ تلك الرؤى هي رؤى نوم أو رؤى يقظة؟ (من قبيل رؤى شقّ الصدر، رؤية جبريل...). ومال المؤلّف إلى القول إنّ شواهد عديدة في القرآن تقيم الدليل على أنّ حدثاً عظيماً وجللاً مثل حدث الوحي لا ينجم فجأة بل إنّ له مقدّماته وإرهاصاته. وتعرّض المؤلّف لاحقاً إلى اختلاف الأقوال بشأن محمّد لحظة تلقّي الوحي، فضلاً عن تاريخ بدء نزول الوحي (رمضان، ليلة القدر، ربيع الأوّل، ...). وخاض المؤلّف في مسألة التداخل أو التمايز بين النبوّة والرسالة. والرأي عنده أنّ مقالة التمايز غير واردة في القرآن، وهو ما يعني أنّ التمايز حصل بعديّاً في سياق رغبة القدامى في التوفيق بين الأقوال المختلفة والمتضاربة في هذا الباب.

وفي مرحلة ثانية، اهتمّ المؤلّف بحدث اللقاء بالمفارق: حدوث اللقاء بغار حراء (تتوفّر في هذا الإطار سِمَتا الخلاء والعلوّ) ... تعدّد اللقاء...، وانتصر المؤلّف، ههنا، لفرضيّة تعدّد اللقاء داخل الغار وخارجه. وقد استعمل المؤلّف كلمة «مفارق» للحديث عن «جبريل»، فحاول تعيين ملامحه باعتباره وسيطاً أساسيّاً في تلقّي محمّد للوحي، ذلك أنّ هويّته غير واضحة تماماً في الطور المكّي، ولكن بعد ذلك عمل المتخيّل الإسلامي على رسم ملامحه (التعويل على التصوير المادّي المحسوس الحامل للسمات الإنسانيّة وللسمات العجيبة في آنٍ معاً). وخلص المؤلّف من هذا الفصل، من بين ما خلص إليه، أنّ كتّاب السيرة ميّزوا قسراً بين بدء الوحي وبدء التنزيل أوّلاً، وأنّ تعيين تاريخ بدء الوحي يعبّر عن قراءة إسلاميّة بعديّة للأحداث ثانياً، وأنّ صورة المفارق في كتب السيرة تعكس التباساً حصل في وعي محمّد: هل رأى الله أم رأى المفارق الوسيط؟

******

لئن كنّا قد قلّبنا، في توطئة هذا الباب، أصناف تعامل أهل السّيرة القدامى مع خبر بدء الوحي، فإنّنا سنسعى، خلال هذا الفصل، إلى تفكيك حدث اللّقاء بالمفارق؛ لنجيب عن جملة من الإشكاليّات أهمّها:

- ما هو الإطار الذي تنزّل فيه هذا الحدث زماناً ومكاناً؟ وما دلالة ذلك الإطار؟ وهل يمكن للباحث أن يستنبط رأياً يطمئن إليه في إخراج حدث اللّقاء الأوّل بالمفارق؟

- كيف تمّ ذلك اللّقاء بين محمّد والمفارق؟ وما هي صورة هذا المفارق؟

- بمَ نبرّر اختلاف أهل السّيرة في ضبط ملامح أساسيّة من ذلك الحدث المركزي لا يستقيم الاختلاف فيها؛ شأن تحديد سنّ محمّد، أو ضبط شهر بدء التنزيل...؟

1- إطار اللقاء:

نعني بالإطار الحيّزين الزماني والمكاني اللذين تمّت فيهما لحظة الاتصال الأوّل بين محمّد والمفارق. وسنركّز على الحيّز الزماني، لنهتمّ بالسياق الذي انخرط فيه بدء الوحي، وبسنّ محمّد، وبتاريخ بدء الوحي، من جهة تحديد الشهر واليوم اللذين تمّ ذلك فيهما، محاولين الوقوف على دلالة الإطار الزمني؛ كما سنحاول الوقوف على المكان ودلالته في سياق سنة الاتصال بالمفارق عموماً.

- **السياق:** تُجمع كلّ روايات بدء الوحي على أنّ محمّداً قد عاش تجربة الاتصال بالمفارق الأوّل في سياق زمني-نفسي خاص هو التحنّث؛ سواء كان ذلك أثناء التحنّث (الروايات أ، ب، ج، هـ)، أم كان مباشرةً إثر الفراغ منه (الرواية د). لقد تعرّضنا، في الباب الأوّل، لتحنّث محمّد، ورأينا أنّ تلك الممارسة التعبديّة انقطاعٌ إلى حياة التأمّل والتفكير، ومفارقةٌ لعقائد أهل الجاهليّة، وبحثٌ عن صلة تهديه نحو الوقوف على كنه الله الواحد[1]. ومِلنا إلى القول: إنّ عزلة محمّد ما فتئت تطول، وإنّ رياضته الروحيّة ما فتئت تشتدُّ كلّما أوغل في الزمان. لقد تمّ الوحي لمحمّد عندما بلغت تجربة التحنّث ذروتها. وفي روايات بدء الوحي ما يدعم فرضيتنا؛ إذ تذكر الروايات سمتيْن خرجتا بمحمّد من باب التحنّث إلى باب الوحي؛ تمثّلت السمة الأولى في الرؤى الصادقة. أمّا السمة الثانية، فتعلقت بتسليم الشجر والحجارة عليه بسلام النبوّة. ونعتقد أنّ هاتين السمتين كانتا علامتين على بلوغ استعداد محمّد لتلقي الوحي تمامه. ولئن كانت السمة الثانية صريحة في هذا الباب، فإنّ خصيصة الرؤى الصادقة تظلّ في حاجة إلى التبيان.

1- راجع الباب الأوّل: الفصل الثالث من عملنا: معارف محمّد وعقيدته.

اكتفى الخبر في مدوّنة السيرة المتقدّمة بالإجمال في ذكر الرؤى «قال ابن إسحاق: فذكر الزهري عن عروة بن الزبير، عن عائشة رضي الله عنها أنّها حدثته: إنّ أول ما بُدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من النبوّة، حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به، الرؤيا الصادقة؛ لا يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا في نومه إلّا جاءت كفلق الصبح...»[2].

ما هي هذه الرؤى التي كان محمّد يراها في نومه؟ وكيف يتجلّى صدقها؟ وهل تنتمي حقّاً إلى بدء النبوّة/ الوحي؟

واجه اللّاحقون من أهل السيرة مثل هذه الأسئلة، فنشأت إجابات منها:

- «وكان فيما بلغنا أوّل ما رأى أنّ الله تعالى أراه رؤيا في المنام فشقّ ذلك عليه، فذكرها لامرأته خديجة، فعصمها الله عن التكذيب، ثمّ إنّه خرج من عندها ثمّ رجع إليها فأخبرها أنّه رأى بطنه شُقّ ثمّ غُسل وطُهّر ثمّ أُعيد كما كان. قالت: هذا والله خير فأبشر. ثمّ استعلن له جبريل...» (الرواية و).

- «... فلما دخل على خديجة قال: أرأيتك الذي كنت حدثتك أنّي رأيته في المنام؟ فإنّه جبريل استعلن إليّ. فقالت: أبشر. فوالله لا يفعل الله بك إلّا خيراً...» (الرواية و).

- «قد ثبت بالطرق الصحاح عن عامر الشعبي أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وُكّل به إسرافيل، فكان يتراءى له ثلاث سنين، ويأتيه بالكلمة من الوحي والشيء، ثمّ وُكّل به جبريل، فجاءه بالقرآن والوحي، فعلى هذا كان نزول الوحي عليه صلى الله عليه وسلم في أحوال مختلفة؛ فمنها النوم كما في حديث ابن إسحاق، وكما قالت عائشة أيضاً: أوّل ما بُدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصادقة»[3]. وأشار الحلبي إلى ذلك أيضاً بقوله: «نقل الماوردي عن الشعبي أنّ الله قرن إسرافيل عليه السلام بنبيّه ثلاث سنين يسمع حسّه ولا يرى شخصه، ويعلّمه الشيء بعد الشيء ولا يذكر له القرآن، فكان في هذه المدّة مبشّراً بالنبوّة، وأمهله هذه المدّة ليتأهّب لوحيه... ويدلّ على ذلك ما قيل إنّه صلى الله عليه وسلم مكث خمس عشرة سنة يسمع الصوت أحياناً ولا يرى شخصاً، وسبع سنين يرى نوراً ولم يرَ شيئاً غير ذلك. وإنّ المدّة التي بشّر فيها بالنبوّة كانت ستة أشهر من تلك المدّة التي هي اثنتان وعشرون سنة، وهذا الشيء الذي كان يعلّمه له إسرافيل لم أقف على ما هو، والله أعلم، وبعد ذلك حبّب الله إليه الخلوة»[4].

2- ابن هشام، ج1، ص168.

3- السهيلي، ج1، ص153.

4- الحلبي، السيرة الحلبيّة، ج1، ص225.

تتراوح الإجابة إذاً بين أن تكون رؤى محمّد متمثلةً في رؤى مناميّة تعلقت بشقّ الصدر وبرؤيا جبريل مناماً، وبين أن تكون متمثلةً في رؤى في حال اليقظة تعلّقت بصحبة إسرافيل؛ صحبة لا يرى فيها شخص إسرافيل، وإنّما يسمع حسّه ويرى نوره.

إنّ مثل هذه الروايات إنّما نشأت لتسدّ فراغاً في السيرة النبويّة، وهو فراغ ناجم عن سكوت المصادر الأولى عن التفصيل في باب الرؤى. ونلاحظ أنّ ما يذكره أهل السيرة المتأخّرون من رؤى يقوم على تخوم الوحي، ويستحضر بعض شروطه. ونعتقد أنّ خيال المسلمين قد نشط في سدّ ذلك الفراغ استناداً إلى الحديث «**رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوّة**»[5].

وبغضّ النظر عن صحّة ما ذكروه من رؤى، فإنّ الراجح أنّ بدء الوحي تنزّل في سياق زمني-نفسي تميّز بشدّة ميل محمّد إلى العزلة والتأمُّل، بعد أن كان قد واظب على سنّة التحنّث، وأوغل في ذلك. ونظنُّ أنّ الرؤى المُشار إليها، وتسليم الشجر والحجارة عليه، لا يعنيان الصحّة التاريخيّة لمثل هذه الأحداث بقدر ما يعنيان أنّ أفكار محمّد وأسئلته الداخليّة بدأت تفيض على الخارج، وتُلقي على العالم المحيط بمحمّد بظلالها فتحاوره، وأنّ نفس محمّد المرتاضة بالخلوة الشديدة بدأت تقدر على اختراق حجب الكون الغامض لتجلي أسراره، ولتتسمّع أصواتاً لا يتسمّعها الناس العاديّون.

يمكننا أن نأخذ بتفسير نفساني يرى أنّ الرؤى والأصوات المسموعة إنْ هي إلّا إسقاط لأفكار محمّد وتأمّلاته الداخليّة على العالم الخارجي[6]، لكنّ هذا التفسير تبسيطي يفقد ظاهرة الوحي ثراءها وتعقّدها. ولا نظنّ أنّ ما قدّمه صاحب (**فلق الصبح**)، من افتراض تعرُّض محمّد إلى حالة محو لمعارفه، ونسيان أدّى إلى حلول اللغة، صوراً ورموزاً، في العالم الخارجي[7]، كفيل بتفسير رؤى محمّد وسماعه قبل الوحي؛ لأنّ الوحي المحمّدي ليس بنشاط تذكّر بقدر ما هو نشاط تلقين[8].

يواجه الباحث غموضاً مجحفاً حول خصائص الزمن النفسي الذي عاشه محمّد بسبب سكوت الروايات عن التفصيل في الحديث عن تخوم هذه اللحظة، وإعراض القرآن عن ذكرها. ومع ذلك، تخبرنا الآية الآتية عن حال محمّد قبيل بدء الوحي: {وَما كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتابُ إِلاّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكافِرِينَ} [القصص: 86/28]. ذهب المفسّرون القدامى إلى حمل هذه الآية على الدلالة على غفلة محمّد التامّة عن الوحي تأسيساً لمقالة الاصطفاء، وتأكيداً لأنّ محمّداً لم يطلب الوحي، ولم يتقصّده، وإنّما فُرِض

5- مسلم، الصحيح، كتاب الرؤيا.

6- الدشتي، علي، 23 عاماً: دراسة في السيرة النبويّة، ص101.

7- BenSlama, (F), La nuit brisée, p. 62.

8- إنّ العبارة القرآنيّة المتواترة «قلْ...» أهمّ دليل على ذلك.

عليه فرضاً[9]. لكنّ الآية صريحة، في نظرنا، في الإشارة إلى أنّ محمداً كان يعقد الرجاء على رحمة ربّه في تحصيل الكتاب: «{إِلاّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ} [الإسرَاء: 87/17]». هل يعني ذلك أنّ محمداً قد كفّ عن طلب الإجابة عن أسئلته أثناء التحنّث، وأعياه التفكير، فطمع في الحصول عليها بسبيل غير سبيل الفكر؟ هل أسلم محمّد نفسه لله ليكشف له الحقيقة وقد تأبّت عليه؟ أو أنّ فترة التحنّث قد طالت، والمخرج من الحيرة قد عسر، فكان الشكّ الذي لا سبيل إلى تبديده إلّا بالعلامة الخارجيّة؟ هل يمكن اعتبار آيّة تصديق الوحي المتمثلة في الرؤى سابقةً لحدث الوحي نفسه على عكس الترتيب الذي أقرّه سبينوزا[10]، ولا سيّما أنّ ذلك يتفق مع حديث القرآن عن بدء الوحي {لَقَدْ رَأَى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى} [النجم: 18/53]؟

لكنّ إشارات أخرى كثيرة يحفل بها القرآن والسيرة تؤكّد فجئيّة حدث الوحي، وغياب الوعي لدى محمّد به، وغياب السلوك الدالّ على انتظاره. إنّ ما يدفعنا إلى مساءلة الرواية المُجملة المُتعلقة بالرؤى والسماع قبيل بدء الوحي هو وعينا أنّ حدثاً عظيماً كحدث الوحي لا ينشأ طفرةً، وإنّما له إرهاصاته النفسيّة المتجلّية في التحنّث المتطوّرة لاحقاً حتماً. وأمام صمت المصادر، إن قدر الباحث أن يرجّح. والرأي عندنا أنّ نفس محمّد المرتاضة بالخلوة بدأت تتوق إلى أن تسعف بإجابة، وأخذ الشكّ ينخرها والرجاء يسندها، تلتقط الصورة وتتسمّع الإشارة دون أن تبلغ الإيقان، ولا ريبَ في أنّ عالم الوحدة في حراء يمكّن لكلّ ذلك[11].

- **سنّ محمد**: تكاد مصنفات السيرة تجمع على أنّ الوحي قد انطلق حين بلغ محمّد سنّ الأربعين[12]؛ بل إنّ بعض المصنّفات، ولا سيّما المتأخّرة، تجعل الوحي يتزامن وبلوغَ محمّد **رأس** الأربعين[13]. والفرق بين المذهبين كامن في ميل الرأي الثاني إلى تحديد أدق؛ لقد انطلق الوحي في **اليوم** الذي أتمّ فيه محمّد أربعين سنة من عمره. وهكذا، يمكننا القول: إنّ بلوغ الأربعين استقام لدى المتأخّرين من أهل السيرة شرطاً لتلقّي الوحي. ونعتقد أنّ أهمّية سنّ الأربعين تعود إلى أسباب منها:

- اعتقاد أهل السيرة أنّ سنّ الأربعين إنّما هي سنّ النبوّة. ولعلّ الخبر الآتي عن أميّة بن أبي الصلت دالٌّ في هذا الباب: «... قال: إنّي كنت أجد في كتبي نبيّاً يُبعث من حرّتنا هذه، فكنت أظنّ؛ بل كنت لا أشكّ أنّي أنا هو. فلمّا دارست أهل العلم إذا هو من بني عبد مناف، فنظرت في بني عبد مناف فلم أجد أحداً يصلح

9- راجع مثلاً: تفسير الطبري، جامع البيان، ج20، ص147.

10- أسُس الوحي عند سبينوزا ثلاثة، هي: 1- تخيّل الأنبياء الأشياء المُوحى بها كأنّها ماثلة أمامهم. 2- الآية. 3- ميل قلوبهم إلى العدل والخير، انظر: رسالة في اللاهوت والسياسة، ص149-150.

11 - بهذا المعنى نفهم قول فنسنك بوجود مرحلتين: مرحلة الوحي الداخلي، فمرحلة الوحي الخارجي، في تجربة محمّد: Wensinck (A.J), art: wahy, dans EI 2.

12- ابن إسحاق، ف147، ص109، ف163 ص114. وكذلك: ابن هشام، ج1، ص167.

13- السهيلي، ص151. والحلبي، ج1، ص215.

لهذا الأمر غير عتبة بن ربيعة. فلما أُخبرت بسنّه عرفت أنّه ليس به، حين جاوز الأربعين ولم يوحَ إليه»[14]. وعلى الرغم من أنّ مثل هذا الخبر قد نشأ في سياق التبشير بمحمّد؛ إذ لا نظنُّ الجاهليين قد أطنبوا القول في أدبيّات النبوّة حتى حدّدوا سنّها، فإنّ أهل السيرة بنوا على أساسه القول في سنّ محمّد وقت النبوّة. وفي هذا الإطار، نفهم قول الحلبي «الأربعون سنّ الكمال ونهاية بعث الرسل»[15].

- مدحُ القرآن لسنِّ الأربعين جاء في الأحقاف: {وَوَصَّيْنا الإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ إِحْساناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ} [الأحقاف: 15/46]. ذهب المفسّرون في تبرير مدح سنّ الأربعين إلى أنّها سنّ تناهي العقل وكمال الفهم والحلم، وهي إلى ذلك سنّ الاستواء[16]. ولئن كانت هذه الآية تربط بين بلوغ الأشدّ وسنّ الأربعين، فإنّ آيات أخرى تجمع بين بلوغ الأشدّ وتلقّي العلم عن الله: {وَلَمّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} [يوسف: 22/12]، {وَلَمّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوى آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} [القصص: 14/28][17].

إنّ قراءة مثل هذه الآيات مجتمعةً تُجيز لنا القول: إنّ النصّ القرآني نفسه يسمح باعتبار سنّ الأربعين سنّاً على غاية من الأهميّة[18]، ما يرشّحها لتكون سنّ النبوّة. وعلى الرغم من ذلك، وردت شهادة النصّ القرآني على سنّ محمّد، وقت بدء الوحي، غامضةً؛ فقد استعمل القرآن لفظ «العمر» في قوله: {قُلْ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْراكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ} [يونس: 16/10]. فما هي دلالة العمر في بيئة محمّد؟ وهل كانت تعني تحديداً زمنيّاً دقيقاً يجعلها عبارة اصطلاحيّة؟[19] لعلنا نتلمّس الإجابة من خلال السبب الثالث:

14- ابن كثير، السيرة النبويّة، ج1، ص130.

15- الحلبي، ج1، ص215.

16- قال الطبري: «حدّثنا أبو كريب قال: ثنا إدريس قال: سمعت عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن مجاهد عن ابن عباس قال: أشدّه ثلاث وثلاثون سنة، واستواؤه أربعون سنة». جامع البيان، ج26، ص22. وقال ابن كثير: «وبلغ أربعين سنة؛ أي تناهى عقله وكمل فهمه وحلمه، ويُقال: إنّه لا يتغيّر غالباً عمّا يكون عليه ابن الأربعين». تفسير القرآن العظيم، ج4، ص196-170.

17- «ولمّا بلغ 'موسى' أشدّه؛ يعني حان شدّة بدنه وقواه، وانتهى ذلك منه... وقوله و'استوى' يقول: تناهى شبابه وتمّ خلقه واستحكم. وقد اختلف في مبلغ عدد سني الاستواء، فقال بعضهم: يكون ذلك في أربعين سنة». الطبري، جامع البيان، ج20، ص51.

18- إضافة إلى ما تقدّم، فإنّ للعدد 40 حضوراً في النصّ القرآني: {قالَ فَإِنَّها مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ} [المائدة: 26/5] {وَإِذْ واعَدْنا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً} [البقرة: 51/2]. وفي الحديث النبوي «ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً إلا شفّعهم الله فيه». صحيح مسلم، كتاب الجنائز. وفي هذا الباب أيضاً تقاليد المسلمين المتعلقة «بأربعينيّة الميّت»، وكذلك في الثقافة الشعبيّة الإسلاميّة «علي بابا والأربعون لصّاً»، «الأربعون فارساً وزعيمهم».

19- يبدو أنّ عبارة «العمر» لم تكن عبارة اصطلاحيّة لدى أهل الجاهليّة؛ إذ لم يرد استعمالها لديهم باعتبارها مصطلحاً، وقد فسّرها الطبري كما يأتي، يقول: «فقد مكثت فيكم أربعين سنة من قبل أن يوحى إليّ». جامع البيان، ج11، ص111. وقال فيها القرطبي: «عمراً: أي مقداراً من الزمان وهو أربعون سنة. وقيل: أي لبثت فيكم مدّة شبابي لم أعصِ الله، أفتريدون منّي الآن وقد بلغت أربعين سنة أن أخالف أمر الله». الجامع لأحكام القرآن، ج8، ص205. ونُشير إلى أنّ جعيط عدّ عبارة «عمر» مرادفة لمصطلح «جيل» المعاصر، وحدّدها بـ «الثلاثين سنة أو ما يزيد قليلاً»، انظر: الوحي والقرآن والنبوّة، ص39.

- إنّ سنّ الأربعين كانت تُعدُّ في الجاهليّة، وإلى يومنا[20]، سنَّ النضج والحنكة واكتساب الحكمة وسداد الرأي؛ هي سنّ الاستواء. ويذكر بعض المؤرّخين أنّ سنّ الأربعين تندرج ضمن شروط الانتساب إلى منتدى القبيلة[21]؛ لأنّ سياسة الناس واتخاذ القرارات الحاسمة في حياة القبيلة تحتاج إلى الرأي السديد. ونظنُّ أنّ المآثر الشخصيّة المهيّئة لهذه الرياسة، كالنجابة والشجاعة والثراء... هي مآثر لا يحصّلها المرء عادةً إلّا انطلاقاً من تلك السنِّ؛ لكنّ كلّ ما تقدّم لا يمنعنا من التساؤل عن مدى اهتمام العرب في الجاهليّة بضبط سنة الميلاد حتى يشترطوا سنّاً بعينها. **ومن ثمّة جاز لنا أن نعدّ سنّ الأربعين عبارةً لا تفيد التحديد الزمني بقدر ما تعني النضج؛ أي إنّ الأربعين هي حال لا سنّ، وقد بلغ محمّد الحال تلك فكان الوحيُ.**

- **تاريخ بدء الوحي**: لقد اقتضى القول: إنّ محمّداً قد تلقّى الوحي الأوّل حين أتمّ الأربعين، من المتأخّرين من أهل السيرة، أن يحدّدوا شهر ربيع الأول تاريخاً لبدء الوحي: «ثمّ قيل: كان ذلك في شهر ربيع الأوّل، كما تقدّم عن ابن عباس وجابر أنّه وُلد -عليه السلام- في الثاني عشر من ربيع الأوّل يوم الإثنين، وفيه بُعث، وفيه عرج به إلى السماء»[22].

سبق أن أشرنا في باب البشائر إلى خصيصة الزمن الذي تؤسّسه مدوّنة السيرة النبويّة، باعتباره زمناً ميثيّاً دوريّاً، ولعلّ هذا الأمر يتأكّد لدينا حين نرى لجوء أهل السيرة إلى تركيب زمن الميلاد على زمن المبعث. ونُلاحظ في هذا الإطار أنّ هذه المقالة لم تبرز إلّا لدى المتأخّرين الذين كلّما أوغلوا في الابتعاد عن زمن الرسول أضفوا على سيرته مسحةً من العجيب تجلّت في ما نحن بصدده في ذلك الاتفاق المذهل بين تاريخ مولده وتاريخ مبعثه. وهكذا، إنّ حدث الميلاد وحدث بدء الوحي قد أُحيطا بعناية إلهيّة وفقتهما ليقعا في اليوم نفسه من الشهر نفسه، فلا غرابةَ إذاً في أن يكون ذلك من دلائل نبوّته[23]. وذلك الاتفاق إنّما يُضفي على حدث الوحي أصالته، تماماً كما يُضفي على حدث الميلاد بركته، ويؤسّس زمناً خاصّاً يمكن نعته بـ«الزمن المبارَك»[24].

20- يشترط الدستور التونسي القديم مثلاً سنّ الأربعين شرطاً للترشّح إلى رئاسة الجمهوريّة، ويشترط الدستور الجديد سنّ الخامسة والثلاثين.

21- العاقل، نبيه، تاريخ العرب القديم وعصر الرسول، ص239. نقلاً عن: الخوني، الصادق، ملابسات بداية نزول الوحي على الرسول محمّد صلى الله عليه وسلم، مجلة جامعة الزيتونة، ع 2، 1993م، ص264. كذلك: الحلبي، ج2، ص33.

22- ابن كثير، السيرة النبويّة، ج1، ص392. كذلك: الحلبي، ج1، ص227.

23- انظر مثلاً ما أورده أبو نعيم الأصبهاني في (دلائل النبوّة): «...عن ابن عباس رضي الله عنهما: وُلد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الإثنين في أوّل شهر ربيع الأوّل، وأنزلت عليه النبوّة في يوم الإثنين في أوّل شهر ربيع الأوّل، ودخل المدينة في أوّل شهر ربيع الأوّل، وتُوفي يوم الإثنين في أوّل شهر ربيع الأوّل». دلائل النبوّة، حيدر أباد، ط2، 1950م، ص110.

24- بيّن أ. لايتس خصائص هذا الزمن، من خلال اعتبار المتصوّفة أنّ ساعة ميلاد محمّد هي ساعة الدعاء المُستجاب، وحدّدوها بساعة «آخر الليل قبل الفجر بمدّة». ومن خصائص الزمن المبارك عند لايتس اجتماع شروط ثلاثة: الحادثة التاريخيّة (ميلاد محمّد)، والتدخّل الإلهي (نزول الله إلى السماء الدنيا وعنايته بدعاء المؤمن)، والفعل الإنساني (دعاء المؤمن). انظر:

Adrien Leites: Temps béni et temps transhistorique: deux conceptions religieuses du temps dans la tradition musulmane, dans Studia Islamica, n°89, 1999, p. 23-41.

عموماً، إنّ ما أسلفنا قوله في باب البشائر، ولا سيّما ما تعلّق ببشائر الولادة، إنّما كان النواة التي بنى عليها أهل السيرة مقالتهم هذه، ولا سيّما أنّ نبوّة محمّد انطلقت عندهم يوم الميلاد كما أسلفنا، فلا غرو أن يكون تاريخ المبعث موافقاً لتاريخ الميلاد.

وعلى الرغم من خلوّ مصنّفات السيرة الأولى من العناية بتحديد يوم بدء الوحي[25]، فإنّنا نظنُّ أنّ ما جاء في صحيح مسلم من مدح ليوم الإثنين: «**وسئل عن صيام يوم الإثنين؟ قال: ذلك يوم وُلدت فيه، ويوم بُعثت أو أُنزل عليّ فيه**»[26]، قد مثّل النواة التي تزيّد فيها المتأخّرون من أهل السيرة، فأضافوا إلى اليوم (الإثنين) الشهرَ (ربيع الأوّل)، وإلى حدثي الميلاد والمبعث، أحداثاً أخرى مركزيّة في التاريخ الإسلامي، كالإسراء والمعراج، والهجرة، والوفاة: «لقد انطلقت النبوّة في المخيال الجمعي يوم الميلاد، وتطابق ذلك مع يوم الإثنين، وصار هذا اليوم مُميّزاً في مراحل النبوّة»[27].

- وعى المتأخّرون من أهل السيرة شذوذ الخبر الناشئ، الذي يجعل بدء الوحي في شهر ربيع الأوّل؛ إذ تكاد المصادر تُجمع على أنّ ذلك كان في شهر رمضان، فحاولوا التوفيق بين المقالتين بحيلة كيّسة قوامها «أنّ ابتداء الرؤيا حصل في شهر ربيع الأوّل، وهو مولده صلى الله عليه وسلم، ثمّ أُوحي إليه في اليقظة؛ أي في رمضان»[28]. وهكذا، وجد هؤلاء في خبر بدء الوحي مدخلاً يصلون من خلاله بين شهر المولد وشؤون الوحي.

أمّا القدامى، فقد مالوا إلى تسويد مقالة بدء الوحي في شهر رمضان استناداً إلى القرآن: «حدّثنا أحمد، حدّثنا يونس، عن ابن إسحاق قال: فابتدئ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتنزيل في شهر رمضان. قال الله تبارك وتعالى: {شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ} [البقرة: 185/2]، وقال الله تعالى: {إِنّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} ([القدر: 1/97] إلى آخر السورة. وقال: {حم *وَالْكِتابِ الْمُبِينِ *إِنّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ إِنّا كُنّا مُنْذِرِينَ} [الدخان: 1/44-3]، وقال: {إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَما أَنْزَلْنا عَلَى عَبْدِنا يَوْمَ الْفُرْقانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ} [الأنفال: 41/8]، وذلك لقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم والمشركين ببدر»[29].

- يُثير التحديد الزمني السابق لحدث بدء الوحي قضيتين أساسيتين؛ تتعلق الأولى بمنزلة رمضان، فالخبر عن بدء الوحي يصل بين شهر التحنّث وشهر بدء الوحي: «... فكان رسول الله يخرج إلى حراء في

25- راجع مثلاً: ابن إسحاق، ص109-117. كذلك: ابن هشام، ج1، ص167-170.

26- صحيح مسلم، كتاب الصيام، الباب 36. ونلاحظ غياب هذا الحديث عن مدوّنة مالك (الموطأ)، والبخاري (الصحيح).

27- الجزار، منصف، المخيال العربي في نصوص الخوارق المنسوبة إلى الرسول، ص107.

28- الحلبي، السيرة الحلبيّة، ج1، ص224.

29- ابن إسحاق، ف148، ص109. كذلك: ابن هشام، ج1، ص169. والسهيلي، الروض الأنف، ج1، ص157- 158. وابن كثير، السيرة النبويّة، ج1، ص392. والحلبي، السيرة الحلبيّة، ج1، ص227. راجع كذلك روايتي بدء الوحي (أ) و(ب) السالفتين.

كلّ عام شهراً من السنة ينسك فيه. وكان من نسك في الجاهليّة من قريش يطعم من جاءه من المساكين حتى إذا انصرف من مجاورته وقضاه لم يدخل بيته حتى يطوف بالكعبة. حتى إذا كان الشهر الآخر الذي أراد الله -عزّ وجلّ- به ما أراد من كرامته من السنة التي بعثه، وذلك شهر رمضان، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم كما كان يخرج لجواره...» (الروايتان أ وب). يبدو من خلال هذا الخبر أنّ المتحنّثين من قريش اختاروا شهر رمضان لأداء هذا الطقس التعبّدي، وتابعهم محمّد على ذلك.

يحار الباحث في تعليل مثل هذا الاختيار؛ فشهر رمضان لم يكن في الجاهليّة من الأشهر الحرم (ذو القعدة، وذو الحجّة، ومحرّم، ورجب)، ولم يكن كذلك شهراً على علاقة بطقوس الحج (ذو الحجّة)، ولا على علاقة بطقوس العمرة (شهر رجب)، أو طقوس النحر (شهر رجب أيضاً)[30]. ومع ذلك، لنا أن نفترض (بناءً على ما قدّمناه من قول في التحنّث، باعتباره ممارسةً دافعها الوعي بفساد عقيدة القوم) أنّ المتحنّثين قد اختاروا شهر رمضان للتمايز عن المشركين. فهل يعني ذلك أنّ محمّداً، وهو أحدهم، جعل من رمضان شهراً متمحّضاً للعبادة/ التحنّث ودأب على ذلك في الجاهليّة؟

لا نعتقد ذلك لسبب رئيس، في رأينا، يتعلق بشعيرة الصوم؛ تروي المصادر أنّ محمّداً صام عاشوراء، ثمّ صام أياماً معدودات (ثلاثة أيام من كلّ شهر؟)، ثمّ صام رمضان[31]. ومن ثمّة يحقُّ القول: لو كان شهر رمضان شهراً قد ميّزه محمّد منذ عهد التحنّث لما تردّد في خصّه بفضيلة الصوم، واستقلّ به منذ البدء عن أهل الكتاب (صوم عاشوراء)، كما أنّ تميُّز رمضان قد تأخّر في الإسلام حتى السنة الثانية للهجرة، ولا تذكر المصادر تمييز محمّد لهذا الشهر طول الفترة المكيّة بأيّ شكل من أشكال العبادة. إنّ هذه الملامح مجتمعةً لا تستقيم وإجماعَ مصنّفات السيرة على أنّ محمّداً دأب على التحنّث شهر رمضان، وإنّما لمّا فُضِّل رمضان بالصوم وبإنزال القرآن فيه (البقرة: 2/184-185) بنى أهل السيرة على ذلك، وجعلوه شهر التحنّث أيضاً، ولم يتورّعوا عن استنشاء أخبار تجعله شهر تنزيل الكتب السماويّة بامتياز[32]؛ حتى يكون الوحي المحمّدي منغرساً داخل سنة الوحي عموماً، وذلك من أمارات أصالته. ولا يناقض القول بعدم اصطفاء محمّد لشهر رمضان شهراً للتحنّث القولَ ببدء الوحي في شهر رمضان، وإنّما الرأي عندنا أنّ محمّداً كان يختلف إلى حراء للتحنّث كلما اشتاق إلى ذلك دون ارتباط بشهر معيّن، ولعلّ فترات تحنّثه كانت تطول وتقصر (الليالي ذوات العدد)، ولعلّه ثابر قبل البعثة (تسنده في ذلك إرهاصات الوحي) على التحنّث مدةً طويلةً تفوق الشهر

30- انظر: علي، جواد، تاريخ العرب قبل الإسلام، ج5، ص208. كذلك: شلحت، يوسف، مدخل إلى علم اجتماع الإسلام، تعريب خليل أحمد خليل، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، ط1، 2003م، ص85-86. كذلك: Le sacrifice chez les arabes. P.U.F, Paris, 1955, p. 148. وقد ردّ يوسف شلحت أطروحة فنسنك (wensinck) القائلة بقداسة شهر رمضان في الجاهليّة.

31- ابن العربي، أبو بكر محمّد بن عبد الله (ت 543)، أحكام القرآن، تحقيق علي محمّد البجاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت)، ج1، ص74-75. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج2، ص185. كذلك: Berg, (C.C), art; Sawm, in EI 1.

32- ابن كثير، السيرة النبويّة، ج1، ص393.

حتى بلغ الوحي، وصادف أن يكون ذلك في شهر رمضان[33]. تلحق بهذه القضيّة مسألة تحديد يوم بدء الوحي من شهر رمضان، وقد استند أهل السيرة إلى الآية: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} [القدر: 1/97] للقول: إنّ بدء الوحي كان ليلة القدر. يجمع ابن إسحاق وابن هشام بين تلك الآية والآية الآتية: {إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ} [الأنفال: 41/8]، فيكون من ذلك أنّ ليلة بدء الوحي/ ليلة القدر هي ليلة (17) رمضان، تاريخ وقعة بدر[34]. لئن كان من المحرج الجمع بين الآيتين؛ بما أنّ الأولى تتعلق بمجمل التنزيل وتحدّد زمناً مطلقاً (ليلة القدر)، بينما تتعلق الثانية بتنزيل بعينه وتحدّد زمناً مقيّداً (يوم بدر) (أي إنّ ما أُنزل على محمّد يوم بدر لا يمكن أن يكون هو ما أُنزل عليه بدءاً، كما لا يمكن أن يكون هو مُجمل ما أُنزل عليه)، فإنّ المتأخّرين من أهل السيرة وعوا ذلك الحرج، فتوسّعوا في مقالة سلفهم، ناهيك عن أنّ الأخبار تضاربت بشأن تحديد ميعاد ليلة القدر، ومالت إلى كونها في العشر الأواخر من رمضان[35]. ومن ثمّة نشأت مقالة لدى المتأخّرين انزاحت ببدء الوحي من السابع عشر من رمضان إلى العشر الأواخر منه[36]، تأسّياً بما جاء في الأخبار. لقد نظر المتأخّرون إلى سيرة النبي بما تحصّل لديهم من علوم إسلاميّة، لعلّ علم الحديث أهمّها في هذا الباب بما أسّسه من مقالة في مدح يوم الإثنين، وبيان ليلة القدر.

أمّا القضيّة الثانية، التي يثيرها التحديد الزمني لحدث بدء الوحي، فتتعلق بعلاقة ذلك الزمن بالوحي؛ تُشير الآيات القرآنيّة، التي اعتمدها أهل السيرة، إلى إنزال كلّي للوحي/ القرآن في مدّة بعينها (شهر رمضان، وليلة القدر، وليلة مباركة). وقد واجه علماء الإسلام بسبب تلك الآيات إشكاليّة صاغوها كما يأتي: كيف السبيل إلى التوفيق بين حدث الإنزال مرةً واحدةً (في زمن بعينه) وخصيصة التنجيم القرآنيّة (في أزمنة متفرّقة)؟ وقد قامت إجابتهم على التمييز بين حدثين: حدث الإنزال، وقد تمّ دفعةً واحدةً في عالم الملأ

33- لقد تنبّه ابن كثير إلى احتمال طول فترات التحنّث أواخر عهد محمّد به، فقال: «...وقويت محبّته عند مقاربة إيحاء الله إليه». السيرة النبويّة، ج1، ص392. وتلمح الرواية عن عائشة إلى ذلك: «أوّل ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من النبوّة الرؤيا الصادقة...وحبّب الله تعالى إليه الخلوة، فلم يكن شيء أحبّ إليه من أن يخلو وحده». ابن هشام، ج1، ص168. ونحن إن كنّا نردُّ كون رمضان كان شهر تحنّث محمّد، فإنّنا نؤكد أنّ ذلك لا يعني، البتة، أنّه لم يكن شهر بدء الوحي، ولعلّ قول البيضاوي حاسم في هذا الباب: «...وفيه إشعار بأنّ الإنزال فيه بسبب اختصاصه بوجوب الصوم». أنوار التنزيل وأسرار التأويل، المكتبة التجاريّة الكبرى، مصر، (د.ت)، ج2، ص217. وقد وهِم غويتن في مذهبه إلى أنّ بدء الوحي تزامن ويومَ الكفارة عند اليهود (ذكرى تنزيل ألواح الشريعة إلى موسى، لاويون، 29-34)؛ لأنّ حجّة فرض صيام عاشوراء بدءاً يعوزها الإقناع، كما أنّ التقويم الديني الذي يورده في معرض المقارنة بين رأس السنة اليهودي/ عاشوراء وليلة البراءة الإسلاميّة (15 شعبان)/ ليلة القدر يعوزه التطابق. راجع عرضاً جيداً لأطروحة غويتن ضمن: Plessner (M), art: Ramadan, dans EI 2.

34- راجع: ابن إسحاق، ف148، ص109. ابن هشام، ج1، ص169.

35- ابن أنس، مالك، الموطأ، كتاب الاعتكاف، باب ما جاء في ليلة القدر. البخاري الصحيح، كتاب الصوم. مسلم الصحيح، كتاب الصيام، باب فضل ليلة القدر وبيان محلّها. وتذكر سنّة الاعتكاف في العشر الأواخر من رمضان بحال التحنّث/ الجوار؛ وقد جاء في الموطأ «الجوار والاعتكاف سواء»، وأنّه «لا اعتكاف إلا بصيام» (كتاب الاعتكاف)، فهل كان الاعتكاف الإسلامي إحياءً لسّنة التحنّث، وهل كان محمّد يصوم مدّة تحنّثه، ولاسيّما أنّ الأخبار كانت تذكر أنّه كان يصوم عاشوراء في الجاهليّة (انظر: مالك، الموطأ، كتاب الصوم. البخاري، الصحيح، كتاب الصوم) وهل كان صومه بمعنى الصمت المساعد على التأمّل؟ عموماً، إنّ بعض ما جاء في المصادر الإسلاميّة من «فضائل رمضان» على علاقة بالوحي؛ من ذلك الحديث «إذا جاء رمضان فتحت أبواب السماء وغلقت أبواب جهنم وسلسلت الشياطين»؛ وكذلك «خبر لقاء جبريل بمحمّد في رمضان من كلّ سنة ليعرض عليه القرآن». راجع: البخاري، الصحيح، كتاب الصوم. إنّ في انفتاح أبواب السماء وأسر الشياطين ولقاء محمّد بجبريل استعادة رمزيّة لحدث بدء الوحي.

36- ابن كثير، السيرة النبويّة، ج1، ص392. كذلك: الحلبي، ج1، ص227.

الأعلى في زمن ميتاتاريخي، وحدث التنزيل، وقد تمّ منجّماً في الأزمنة التاريخيّة المختلفة من حياة محمّد منذ البعثة. ولم يشذّ علماء السيرة بذلك عن الرأي السائد في التراث[37]، إلّا أنّنا نجد في مدوّنة السيرة رأيين آخرين نعدّهما طريفين، وإن لم يسهب أهل السيرة في عرضهما لشذوذهما:

- أمّا **الرأي الأوّل**، فيلمّح إلى أنّ الوحي نزل على محمّد عند بدء الوحي جملةً واحدةً، وذلك التلميح كامن في عبارة الرواية (ب): «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فجاءني جبريل وأنا نائم **بنمط من ديباج فيه كتاب** فقال: اقرأ... ثمّ انتهى فانصرف عنّي وهببت من نومي فكأنّما **كتبت في قلبي كتاباً**». وفي عبارة الرواية (أ): «وهببت من نومي وكأنّما صُوّر في قلبي كتاب».

جاء عن السهيلي (شارح ابن هشام صاحب الرواية (ب)) ما يأتي: «وذكر في الحديث أنّ جبريل أتاه بنمط من ديباج فقال: اقرأ، قال بعض المفسّرين في قوله: {الم *ذَلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدَىً لِلْمُتَّقِينَ} [البقرة: 2-1/2] إنّها إشارة إلى الكتاب الذي جاءه به جبريل حين قال له: اقرأ... وقوله: ما أنا بقارئ؛ أي إنّي أُمّي فلا أقرأ الكتب قالها ثلاثاً، فقيل له: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ} [العَلق: 1/96]؛ أي إنّك لا **تقرؤه** بحولك ولا بصفة نفسك ولا بمعرفتك، ولكن اقرأ مفتتحاً باسم ربّك مستعيناً به، فهو يعلمك كما خلقك...»[38].

يتناسق هذا الرأي الذي يُقدّمه السهيلي مع رواية ابن هشام/ ابن إسحاق لخبر بدء الوحي، تماماً كما يتناسق والقراءةَ اللغويّة للآيات الأولى من العلق (وهي أوّل ما نزل من القرآن كما في الروايتين (أ) و(ب) و(و))؛ فالأمر بالقراءة يفترض مقروءاً (مفعولاً به) هو الكتاب الذي جاء به جبريل محمّداً، ومن ثمّة إنّ أوّل ما نزل على محمّد هو الكتاب. هل يعني ذلك أنّ الوحي أُلقِيَ على محمّد كلّاً منذ اللحظة الأولى، وأنّ سمة التنجيم لم تكن إلّا تفريقاً لذلك الكلّ على الوقائع، وبحسب المناسبات؟ لكنّ هذا الرأي يبدو شاذّاً عمّا أجمع عليه المسلمون، مخالفاً ما نعلمه عن سيرة النصّ القرآني وعن علاقة محمّد بالوحي، باعتباره نصّاً غائباً علمه بالتدريج. حينئذٍ علينا أن نواجه السؤال الآتي: لمَ استنجد أهل السيرة بمثل هذا الرأي؟

إنّ أهل السيرة، وهم يبنون حياة محمّد (بدء الوحي أهمّ مراحلها) كانوا يقيسون سيرة نبيّ الإسلام بما علموه عن سيرة الأنبياء؛ واقتضى منهم ذلك أن يضاهوا بين محمّد وبقية الأنبياء حيناً، وأن يفضّلوه عليهم حيناً آخر. ولمّا استقام عند أهل السيرة أنّ أنبياء أهل الكتاب (حال عيسى خصوصاً) قد عقلوا الوحي جملةً واحدةً مالوا إلى مماثلة محمّد بهم حتى لا يمتاز الوحي الآخر عن الوحي الإسلامي. ذلك ما نخلص إليه عندما نقف على عناية السهيلي، ومن بعده الحلبي، بالمقارنة بين محمّد وعيسى في باب الوحي[39]. ومثلما

37- السهيلي، الروض الأنف، ج1، ص158.

38- المصدر نفسه، ص154.

39- راجع: السهيلي، الروض الأنف، ج1، ص156. الحلبي، السيرة الحلبيّة، ج1، ص220-230.

حاول أهل السيرة سحب خصائص الوحي السابق على الوحي المحمّدي، حاولوا كذلك سحب خصائص الوحي المحمّدي على الوحي السابق. وفي هذا الإطار، نفهم قول الحلبي «عن علقمة بن قيس: أوّل ما يُؤتى به الأنبياء في المنام حتى تهدأ قلوبهم ثمّ ينزل الوحي»[40]. ولا شكّ عندنا في أنّ نزعة الجدل مع أهل الكتاب، والرغبة في بناء سيرة محمّديّة فذّة تتفوّق على سيرة بقيّة الأنبياء، كانتا من العوامل التي صاغت الفكر الإسلامي برمّته، لكنّها كانت أظهر في فنّ السيرة، وأكثر حدّةً، لاقتران هذا الفنّ بشخص النبيّ؛ لذلك شاع الرأي القائل بتلقّي محمّد الوحيَ جملةً في مدوّنة السيرة، وخبا في سائر العلوم الإسلاميّة الأخرى[41].

- أمّا **الرأي الثاني**، فيميل إلى تفسير الإنزال في قوله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} [القدر: 1/97] بأنّه لا يتعلق ببدء الوحي، وإنّما يتعلق بعالم الملأ الأعلى. لقد أورد الحلبي في سياق تحديد تاريخ بدء الوحي الرأي الآتي: «... وهذا القول؛ أي أنّ البعض كان في رمضان، قال به جماعة، واحتجّوا بأنّ أوّل ما أكرمه الله بنبوّته أنزل عليه القرآن. وأجيب بأنّ المُراد بتنزيل القرآن في رمضان نزوله جملةً واحدةً في ليلة القدر إلى بيت العزّة في سماء الدنيا»[42].

يكشف هذا الرأي عن ثلاث مقالات:

- الأولى: تمييز الحلبي بين بدء النبوّة وبدء إنزال القرآن «احتجّوا بأنّ أوّل ما أكرمه الله تعالى بنبوّته أنزل عليه القرآن»؛ فالنبوّة، عند الحلبي، والوحي صنوها، أوسع من القرآن، ولا يفترض القول ببدء المبعث القول ضرورةً ببدء إنزال القرآن؛ ومن ثمّة إنّ الحلبي يُميّز زمنيّاً بين بدء الوحي/ النبوّة الذي انطلق عنده ببدء الرؤى وطال مدّة ستة أشهر، وبدء تنزيل القرآن الذي كان إثر تبدّي جبريل لمحمّد في غار حراء[43]. وبغضّ النظر عن قضيّة تحديد زمن بدء الوحي، إنّ هذا التمييز الذي أقامه الحلبي يكشف عن نظرة عميقة في سيرة الوحي المحمّدي لا ترى تطابقاً بين الوحي والقرآن؛ بل تُميّز بينهما، وتجعل الأوّل متضمّناً الثاني، لكنّه أوسع منه حدوداً.

- الثانية: وعي الحلبي بخلط المخالف بين إنزال القرآن ليلة القدر إلى السماء الدنيا، وإنزاله ليلة القدر على محمّد. إنّ الرأي السائد القائل: إنّ الوحي نزل جملةً واحدةً إلى السماء الدنيا يستند إلى الآية التي في

40- الحلبي، السيرة الحلبيّة، ج1، ص223.

41- من المفيد المقارنة بين تفسير السهيلي للآية: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ} على أنّ اسم الإشارة فيها «ذلك» يعود على الكتاب الذي جاءه به جبريل عند بدء الوحي، ومقالة المفسّرين في ذلك، وقد جمعها القرطبي في عشرة أقوال، لم نقف في واحد منها على ما ذهب إليه السهيلي. انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج1، ص111. كذلك: الطبري، جامع البيان، ج1، ص111. كذلك: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج1، ص41.

42- الحلبي، السيرة الحلبيّة، ج1، ص228.

43- يُعبّر السهيلي عن هذا الموقف كذلك بقوله: «قالت (عائشة) في أوّل الحديث أوّل ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصادقة كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثمّ حبّب الله إليه الخلاء، إلى قولها حتى جاءه الحقّ وهو بغار حراء، فذكرت في هذا الحديث أنّ الرؤيا كانت قبل نزول جبريل عليه السلام بالقرآن، وقد يمكن الجمع بين الحديثين بأنّ النبي صلى الله عليه وسلم جاءه جبريل في المنام قبل أن يأتيه في اليقظة». الروض الأنف، ج1، ص153.

سورة القدر (القدر1/97)، وإلى الآية التي في سورة البقرة (البقرة 185/2) المذكورتين سابقاً، لكنّ أصحاب هذا الرأي يحملون الإنزال في هاتين الآيتين كذلك على إنزال القرآن على محمّد. لقد رأى الحلبي أنّ هذا الجمع بين إنزال القرآن في ليلة القدر إلى السماء الدنيا وإنزاله على محمّد كذلك إنّما هو جمع محرج. والأحرى الاختيار بين أحد هذين الإنزالين: «أجيب بأنّ المُراد بنزول القرآن في رمضان نزوله جملةً واحدةً في ليلة القدر إلى بيت العزّة في سماء الدنيا».

- الثالثة: لجوء الحلبي، استناداً إلى ما تقدّم، إلى تحديد تاريخ لبدء الوحي مخالف لما ساد في التراث، هو شهر ربيع الأوّل. لقد تناولنا هذا الرأي سابقاً، إلّا أنّنا نعود إليه لعلاقته في هذا السياق بقضيّة الإنزال. إنّ شهر ربيع الأوّل عند الحلبي هو شهر بدء الوحي لا شهر بدء تنزيل القرآن، وقد بدأ الوحي عنده ببدء الرؤى. والطريف أن يقدّم الحلبي القراءة الآتية للأحداث: «وذكر بعضهم أنّ مدة الرؤيا ستة أشهر، قال: فيكون ابتداء الرؤيا حصل في شهر ربيع الأوّل، وهو مولده صلى الله عليه وسلم، ثمّ أوحى الله إليه في اليقظة؛ أي في رمضان، وجاء في الحديث: «الرؤيا الصادقة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوّة»، قال بعضهم: معناه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم حين بُعث أقام بمكّة ثلاث عشرة سنة وبالمدينة عشر سنين يُوحَى إليه؛ فمدّة الوحي إليه في اليقظة ثلاث وعشرون سنة، ومدّة الوحي إليه في المنام؛ أي التي هي الرؤيا، ستة أشهر... فهذه الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً، هذا كلامه، وحينئذٍ يكون المعنى: ورؤيتي جزء من ستة وأربعين جزءاً من نبوّتي»[44].

بمثل هذه القراءة يسعى الحلبي إلى التوفيق بين التاريخين؛ فالوحي بدأ في شكل رؤى مناميّة في شهر ربيع الأوّل، واستمرّت الرؤى ستة أشهر حتى كان الوحي يقظة في رمضان.

لقد ملنا سابقاً إلى عدّ الرؤى من باب الإرهاص بالوحي لا من باب الوحي، ولعلّ ما يخوّل لنا ذلك سيرة الوحي نفسه؛ فهو لم يتطوّر من الوحي بالرؤى إلى «الوحي السماعي/ التلقيني»؛ بل إنّ الوحي بالرؤى سيظلُّ حاضراً في تجربة محمّد بعد المبعث، وذلك ما سنبيّنه في الباب التالي. نضيف إلى ذلك أنّ الرؤى لم تكن حالاً دنيا من الوحي تمهّد لأطوار لاحقة أكثر تطوّراً بشهادة القرآن نفسه[45]. كما أنّ ربطنا بين بدء الوحي والوعي النبويّ لدى محمّد، في مطلع هذا الباب، يلزمنا أن ننظر إلى الرؤى باعتبارها خارج بدء الوحي، ولا سيّما أنّ محمداً نفسه قد غيّبها وهو يحدّث عن بدء أمره، تماماً كما غيّبها المسلمون من خلال عدم الاحتفاظ بأيّ مثال من هذه الرؤى.

44- الحلبي، السيرة الحلبيّة، ج1، ص224.

45- يُشير القرآن إلى أنّ الرؤيا كانت شكلاً من الوحي محايثاً للوحي «السماعي-التلقيني»، لا شكلاً أدنى ممهداً؛ فبمناسبة الفتح يذكر القرآن {لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخافُونَ فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِكَ فَتْحاً قَرِيباً} [الفتح: 27/48]. وكانت الرؤيا لدى إبراهيم وحياً تامّاً: {فَلَمّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قالَ يا بُنَيَّ إِنِّي أَرى فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ ماذا تَرى قالَ يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصّابِرِينَ} [الصافات: 102/37].

إضافةً إلى ذلك، يسعى الحلبي، في الآن نفسه، إلى التوفيق بين بدء الوحي في المنام وبدء الوحي يقظةً، وهو في ذلك كلّه يُمارس سمةً تميّزت بها مدوّنة السيرة المتأخّرة سمّاها أحد الباحثين المعاصرين «سمة الجمع والتبرير»[46]. وقد أثّرت هذه السمة في مدوّنة السيرة المتأخّرة حتى أنّك تلاقي الرأي ونقيضه، وتقف على المقالة وضديدتها، وتعييك الحيلة في الظفر بالقول الفصل في الباب الواحد؛ فالوحي قد بدأ يقظةً تماماً كما بدأ مناماً. أمّا زمنه، فهو ربيع الأوّل، وهو كذلك رمضان. أما سنّ محمّد وقتها، فهي الأربعون، وهي كذلك دون الأربعين أو بعدها.

لقد حاولنا سابقاً تفهّم مقالة الإخباريين في ضبط سنّ محمّد عند بدء الوحي، لكنّنا سنعود إلى تقليب تلك القضيّة على وجه آخر يُعنى بتأويل أهل السيرة لاختلاف سلفهم في ضبطها، وما في ذلك من أثر على مبحث الوحي؛ ولعلّ تناولنا ما جاء في مدوّنة السيرة المتأخّرة كفيلٌ ببيان ذلك.

جاء في (**السيرة النبويّة**) لابن كثير الخبر الآتي: «قال الإمام أحمد: حدّثنا يحيى بن هشام، عن عكرمة، عن ابن عباس: أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثلاث وأربعين؛ فمكث بمكة عشراً، وبالمدينة عشراً، ومات وهو ابن ثلاث وستين. وهكذا روى يحيى بن سعيد وسعيد بن المسيّب»[47].

هل وهم المسلمون في تحديد مدّة الوحي المحمّدي فتأرجحوا بين حدّه بعشرين سنة وحدّه بثلاث وعشرين سنة عند القائلين ببدء الوحي في سن الأربعين؟ أيعقل أن يغفل المسلمون عن أمر كهذا يتعلق بالمدّة التي عاشها محمّد نبيّاً؟

قدّم المتأخّرون، في سعيهم إلى رفع الحرج، تأويلات طريفة أثّرت في تصوّرهم سيرة الوحي، وحوّرت من لحظة بدء الوحي، منها:

- أنّ محمّداً كان نبيّاً يتلقّى وحياً في سنّ الأربعين، إلّا أنّ القرآن قد تأخّر إنزاله عليه إلى سنّ الثالثة والأربعين. استهلّ ابن كثير بحثه في سنّ الرسول زمن المبعث بالرواية الآتية: «قال الإمام أحمد: حدّثنا محمّد بن أبي عدي، عن داود بن أبي هند، عن عامر الشعبي، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم نزلت عليه النبوّة وهو ابن أربعين سنة، فقرن بنبوّته إسرافيل ثلاث سنين، فكان يعلّمه الكلمة والشيء، ولم ينزل القرآن. فلمّا مضت ثلاث سنين قرن بنبوّته جبريل فنزل القرآن على لسانه عشرين سنة، عشراً بمكة وعشراً بالمدينة. فمات وهو ابن ثلاث وستين سنة. فهذا إسناد صحيح إلى الشعبي، وهو يقتضي أنّ إسرافيل قرن معه بعد الأربعين ثلاث سنين، ثمّ جاءه جبريل»[48].

46- الجزار، منصف، المخيال العربي في نصوص الخوارق المنسوبة إلى الرسول، ص372.

47- ابن كثير، السيرة النبويّة، ج1، ص389.

48- المصدر نفسه، ص388. كذلك: الحلبي، السيرة الحلبيّة، ج1، ص234.

تقيم هذه الرواية تمييزاً بين الوحي والقرآن؛ لتوفّق بين سنّ الأربعين وسنّ الثالثة والأربعين، وحتى يستقيم مثل ذلك التمييز اجتبت الرواية ملكاً معه يبدأ الوحي هو إسرافيل، وآخر يبدأ معه القرآن هو جبريل. ولئن ذكر القرآن جبريل باعتباره وسيط الوحي، فإنّ مهمّة كهذه لا ينيطها القرآن البتّة بإسرافيل؛ بل إنّ القرآن لا يُشير إلى هذه الصحبة، ولا إلى هذه المرحلة، وقد دامت ثلاث سنوات برمّتها، ثمّ إنّ المصادر الأولى للسيرة قد سكتت هي الأخرى عن صحبة إسرافيل. فهل سكتت مدوّنة السيرة الأولى عن ثلاث سنوات برمّتها من حياة محمّد نبيّاً؟

تقرّ الرواية أنّ إسرافيل كان يعلّم محمّداً «الكلمة والشيء» من الوحي حتى نزل القرآن، لكنّنا لا نعلم عن ذلك التعليم أثراً. أكان ذلك ممّا لم يُطالب محمّد بتبليغه فأسرّه في نفسه وبلّغ عن ربّه القرآن، أم أنّ المصادر أغفلت الفترة برمّتها؟ ألا تتطابق صحبة إسرافيل مع فترة الرؤى، وقد اعتبرتها المدوّنة المتأخّرة من باب الوحي؟ لكنّ الرواية لا تُشير إلى الرؤى؛ بل تُشير إلى «تعليم الكلمة والشيء».

نُرجئ الإجابة عن هذه الأسئلة ريثما نعرض بقيّة التأويلات، ومنها:

- أنّ محمّداً تلقّى القرآن في سنّ الأربعين، إلّا أنّه كان على صلة بالملائكة قبل ذلك؛ فـ «قد ثبت بالطرق الصحاح عن الشعبي أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وُكّل به إسرافيل، فكان يتراءى له ثلاث سنين، ويأتيه بالكلمة من الوحي والشيء، ثمّ وُكّل به جبريل، فجاءه بالقرآن والوحي، فعلى هذا كان نزول الوحي عليه صلى الله عليه وسلم في أحوال مختلفة؛ فمنها النوم كما في حديث ابن إسحاق، وكما قالت عائشة أيضاً: أوّل ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصادقة»[49]. يجمع هذا التأويل بين اعتبار الوحي بادئاً بظهور جبريل «فجاءه بالقرآن والوحي»، واعتباره منطلقاً منذ عهد الصحبة مع إسرافيل «يأتيه بالكلمة من الوحي». والراجح أنّ هذا التأويل يوسّع من حدود الوحي ليشتمل على فترة الرؤى السابقة لظهور جبريل، لكنّ هذه الفترة (فترة صحبة إسرافيل) تطول في بعض الروايات لتمتدّ على خمس عشرة سنة[50]، وهي فترة كان فيها الرسول «يصيبه قبل نزول القرآن ما يشبه الإغماء بعد حصول الرعدة، وتغميض عينيه، وتربّد وجهه، ويغطّ كغطيط البكر»[51]. إنّ الأعراض التي يذكرها أهل السيرة، وصحبة الملك إسرافيل، وتلقّي الكلمات منه، ذلك كلّه من حال الوحي. عندئذٍ ينفتح عهد الوحي على عهد البشائر، ولا مزيّة لسنّ الأربعين سوى أنّها السنّ التي شهدت بدء تنزيل القرآن. ولعلّ الغاية من ذلك كلّه تأسيس القول بعصمة الرسول قبل البعثة على مقالة صحبة إسرافيل له.

49- السهيلي، الروض الأنف، ج1، ص153.

50- الحلبي، السيرة الحلبيّة، ج1، ص225.

51- المصدر نفسه، ص241-250.

- يجمع التأويل الثالث بين مدّة فتور الوحي وصحبة إسرافيل لمحمّد؛ فقد ذكر مصنّفو السيرة أنّ الوحي فتر عن رسول الله بعد نزول «اقرأ» مدةً قدّروها بثلاث سنوات، ثمّ نزلت «المدثّر»[52]، وجاء عن الحلبي قوله: «وهذه الفترة لم يذكر لها ابن إسحاق مدّة معيّنة، وفي فتح الباري أنّ ابن إسحاق جزم بأنّها ثلاث سنين... والظاهر أنّها؛ أي مدّة الفترة، كانت بين اقرأ ويا أيّها المدثر، وهي المدّة التي اقترن معه فيها إسرافيل، كما قال الشعبي»[53]. فجبريل، إذاً، قد فارقه بعد اللقاء الأوّل ونزول «اقرأ» ليصحبه إسرافيل مدةً وصفها القدامى بـ «مدّة فتور الوحي»، ثمّ وكّل به جبريل من جديد بنزول المدّثّر. أمّا عن فائدة هذا التناوب، فيجيب أهل السيرة أنّ ذلك اقتضاه التكليف بالنبوّة فالتكليف بالرسالة[54].

لا نظنّ أنّ الأمر يتعلّق بتمييز بدء الوحي بين النبوّة والرسالة، ولا سيّما أنّ القرآن نفسه لا يقيم مثل ذلك التمييز، وإنّما هو تمييز إسلامي لاحق. والرأي عندنا أنّ مصنّفي السيرة المتأخّرين راموا الجمع بين الأخبار المأثورة عن السلف والتوفيق بينها، فاضطربوا في ذلك أيّما اضطراب، حتى ذكروا التاريخ وغيره، وخلطوا بين بدء الوحي وفترة البشائر، ومزجوا بين مدّة فتور الوحي وسنّ محمّد عند انطلاق الوحي. ونحن نرجّح أنّ رواية بدء الوحي في سنّ الثالثة والأربعين هي رواية ناشئة عن اضطراب أوقعت فيه سيرة الوحي نفسها؛ فبعد اللقاء الأوّل هجر الملك محمّداً، حتى ظنّ بعضهم أنّ صاحب محمّد قد قلاه. وطال هذا الفتور مدةً قاربت ثلاث سنوات حتى نزلت «المدّثّر». وقد وجد أهل السيرة في ذلك مدخلاً للقول بصحبة إسرافيل، وللتمييز بين بدء الوحي وبدء القرآن، وللتمييز كذلك بين وحي النبوّة ووحي الرسالة.

إنّ إقحام إسرافيل في خبر الوحي ينهض بوظيفة التوفيق بين الأخبار المتضاربة، وهو يكشف كذلك عن سعي المدوّنة السنيّة المتأخّرة إلى احتواء أخبار شيعيّة ضاقت عنها المدوّنة السنيّة المبكّرة في السيرة؛ فقد جاء في مدوّنة المجلسي: «كان (محمّد) قبل بعثته، منذ أكمل الله عقله في بدو سنه، نبيّاً مؤيّداً بروح القدس، يكلّمه الملك، ويسمع الصوت، ويرى في المنام»[55]. وجاء فيها كذلك «قرن إسرافيل برسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث سنين يسمع الصوت ولا يرى شيئاً، ثمّ قرن به جبريل عليه السلام، وذلك حين أُوحي إليه»[56].

52- راجع مثلاً: ابن إسحاق، فـ166، ص115. ابن هشام، ج1، ص173.

53- الحلبي، السيرة الحلبيّة، ج1، ص249. كذلك: ابن كثير، السيرة النبويّة، ج1، ص414.

54- الحلبي، السيرة الحلبيّة، ج1، ص238-250. كذلك: ابن كثير، السيرة النبويّة، ج1، ص414.

55- المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار الجامعة لدرر الأخبار الأئمة الأطهار، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1983م، ج18، ص277.

56- المرجع نفسه، ج18، ص232. راجع كذلك: عامر، جيهان، بدء الوحي من خلال المصادر الشيعيّة الاثني عشريّة: بحار الأنوار للمجلسي أنموذجاً، ص216. والراجح أنّ المجلسي «ركّب خصائص الإمام في صورة النبي»، كما تقول الباحثة (ص 237)، فأطلق سنّ بدء الوحي. وقد ورد في مدوّنة الطبري ما يؤكد ضيق المدوّنة السنيّة المبكرة بالخبر الشيعي «وقد روي عن الشعبي أنّ إسرافيل قرن برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يُوحى إليه بثلاث سنين...قال الواقدي: فذكرت ذلك لمحمّد بن صالح بن دينار فقال: والله يا بن أخي لقد سمعت عبد الله بن أبي بكر بن حزم وعاصم بن عمر بن قتادة يحدّثان في المسجد ورجل عراقي يقول لهما هذا، فأنكراه جميعاً وقالا ما سمعنا ولا علمنا إلا أنّ جبريل هو الذي قرن به، وكان يأتيه بالوحي من يوم نُبّئ إلى أن توفّي صلى الله عليه وسلم». تاريخ الأمم والملوك، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، (د.ت) ج2، ص109-110.

ونعتقد كذلك أنّ إقحام إسرافيل في خبر بدء الوحي نابع عن تصوّر المسلمين لعالم الملائكة[57]، ناشئ للردّ على المخالفين من أهل الكتاب[58].

2- حدث اللقاء بالمفارق:

لئن كنّا قد فكّكنا بدء الوحي إلى «لحظات»، فإنّنا على وعي بأنّ كلّ لحظة متّصلة بما سبقها، مؤثرة في ما لحقها، ولعلّ لحظة اللقاء بالمفارق هي أهمّ لحظة في خبر بدء الوحي. وسنهتمّ في هذا الإطار بكيفيّة هذا اللقاء، وبصورة المفارق الذي التقى محمّداً وهويّته، وبمضمون اللقاء. ونحن نطمح إلى تقليب مقالة أهل السيرة في ذلك؛ للكشف عن رهاناتها، كما نطمح إلى الوقوف على إشكاليّات الوحي التي يثيرها هذا الحدث علّنا نظفر برأي في هذا الباب.

▪ **كيفيّة اللقاء:** عند عودتنا إلى رواية بدء الوحي نلاحظ أنّها رواية ما فتئت تتناسل وتتعدّد كلّما أوغلنا في التاريخ؛ لذلك يصعب على الباحث أن يقف على كيفيّة واحدة لذلك اللقاء؛ فعدد اللقاءات ليس واحداً في كلّ الروايات، وكذا قلْ عن إطار اللقاء وزمنه وأحداثه. لذلك كلّه ارتأينا أن نحاور هذا الجانب من خلال إبداء جملة من الملاحظات نعدّها من أهم سمات رواية السيرة النبويّة:

- تكاد مختلف الروايات تجمع على أنّ اللقاء بالمفارق إنّما تمّ في حراء[59]، ومحمّد على عادته في التحنّث. ويلفتنا الإطار بسمتين أساسيتين هيّأتاه ليكون إطار الاتصال بالمفارق بامتياز، هما: سمة الخلاء

57- يبدو، من خلال الشذرات المبثوثة في مصنّفات المسلمين، أنّ لإسرافيل مرتبة الصدارة في موكب الملائكة؛ فهو يقوم وسيطاً بين اللوح المحفوظ وسائر الملائكة، وهو الموكل بالنفخ في الصور، وهو الأعظم خلقة من بين الملائكة...ولعلّ النصّ الآتي حول الإسراء مفيد في هذا الباب: «...فإذا بيني وبين جبريل أمد بعيد، فقلت: يا جبريل أين تتركني تتخلّف عني؟ قال: يا محمّد أنت في مقام لا يتجاوزه أحد من خلق الله ولو تجاوزته لاحترقت بالنور، ثمّ قال: يا محمّد جز أنت فإنّ ربك سيهديك، ففارقته وسرت ما شاء الله... فإذا بإسرافيل له أربعة أجنحة؛ جناح قد اتزر به، وجناح قد ارتدى به، وجناح قد استتر به من النور، وجناح قد التقم به الصور... قال ابن عباس: سأل إسرافيل ربّه أن يعطيه قوّة السموات والأرض والجبال والرياح وقوّة الثقلين، فأعطاه من رأسه إلى قدمه شعوراً ووجوهاً وألسنة مغطاةً بأجنحة لا يعلم عددها إلا الله، يُسبّح كلّ لسان بألف ألف لغة، ويخلق الله من كلّ تسبيحة ملكاً على صورة إسرافيل وهم الملائكة المقرّبون». الصفوري، عبد الرحمن، نزهة المجالس ومنتخب النفائس، دار الفكر، بيروت، (د.ت)، ج2، ص144. راجع حول منزلة إسرافيل أيضاً: - القزويني، زكريا بن محمّد، عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت)، ج2، ص401. - Jadaan (F), la place des anges dans la théologie cosmique musulmane, op. cit, p. 49. - Wensinck, (AJ), Art Isr?fil, dans EI 2. وهكذا، إنّ الوحي المحمّدي يكتسب أصالته كون إسرافيل (عظيم الملائكة وأمين اللوح المحفوظ) قد أعدّ محمداً للوحي طول ثلاث سنوات.

58- جاء في تفسير ابن كثير للآية {قُلْ مَنْ كانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ} [البقرة: 97/2]: «قالوا (اليهود) إنّما بقيت واحدة وهي التي نتابعك إن أخبرتنا بها. إنّه ليس من نبي إلا وله ملك يأتيه بالخبر، فأخبرنا من صاحبك؟ قال: جبريل عليه السلام. قالوا: جبريل ذاك الذي ينزل بالحرب والقتال والعذاب عدوّنا، ولو قلت ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والقطر والنبات لكان». تفسير القرآن العظيم، ج1، ص134. كذلك: الطبري، جامع البيان، ج1، ص498. فإضافة وساطة إسرافيل غايتها إذاً دعم منزلة جبريل باعتباره ملك الوحي الإسلامي.

59- انظر: ابن إسحاق، ف140، ص101-102. ابن هشام، ص168-171. السهيلي، ج1، ص153...وقد وصف ابن كثير المكان قائلاً: «هو جبل بأعلى مكة على ثلاثة أميال منها عن يسار المارّ إلى منى، له قلّة مشرفة على الكعبة منحنية، والغار في تلك الحنية». السيرة النبويّة، ج1، ص390.

وسمة العلو. لقد عُدّت الجبال منذ القديم المكان المفضّل لسكنى الآلهة أو لاتصالها بالبشر[60]؛ فأبولو كبير آلهة اليونان يسكن أعلى جبل الأولمب، والله تجلّى لموسى على قمّة الجبل، وكان الكهّان ينزلون الجبال كذلك: «... وحدثني علي بن نافع الجرشي أنّ جنباً (بطن من اليمن) كان لهم كاهن في الجاهليّة، فلمّا ذكر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وانتشر في العرب قالت له جنب: انظر لنا في أمر هذا الرجل، **واجتمعوا له في أسفل جبله**، فنزل عليهم حين طلعت الشمس فوقف لهم قائماً متكئاً على قوس له...»[61].

فإذا أضفنا إلى ذلك أنّ محمّداً كان في غار حراء، بما يعنيه ذلك من اختفاء عن الأعين وظلمة/ غبش دائم، فإنّنا نستنتج أنّ الإطار كان من أهمّ العوامل المساعدة على التقاء المفارق المهيّئة له. ويبدو أنّ الخلوة كانت شرطاً أساسيّاً لتبدي المفارق، ذلك ما تشير إليه الرواية (هـ): «إنّي إذا خلوت وحدي سمعت نداء». ويثير هذا الأمر إشكالاً نصوغه كما يأتي: هل يعني شرط الخلوة أنّ رؤية المفارق أو سماعه هو أمر موضوعي، وتجربة إمبريقيّة يمكن للآخرين ملاحظتها؛ لذلك كان المفارق يتحيّن من محمّد خلوة؟

- تُشير الروايات (أ) و(ب) و(هـ) و(و) إلى أنّ لقاء المفارق حدث أكثر من مرّة؛ ويمكننا أن نتخذ ما جاء في الرواية (ب) أنموذجاً على ذلك «... فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فجاءني جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فقال: اقرأ... ثمّ انتهى فانصرف عنّي وهببت من نومي وكأنّما كتبت في قلبي كتاباً. قال: فخرجت حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول: يا محمّد أنت رسول الله وأنا جبريل، فوقفت أنظر إليه». ونعتقد أنّ هذا البناء المخصوص لأحداث اللقاء الأوّل ناشئ للإجابة عن حرج؛ فقد واجه به رواة السيرة سؤالين هما: إلى أيّ حدٍّ يمكن التأسيس لبدء الوحي إذا كان قد تمّ في حال النوم؟ وكيف عرف محمّد أنّ زائره إنّما هو جبريل، وأنّه نزل يكلّفه بالرسالة عن الله؟ واجه رواة السيرة هذين السؤالين ضمنيّاً من خلال التصرّف في رواية بدء الوحي، وترتيب أحداث اللقاء الأوّل، ومن خلال إيراد أخبار في اختبار هويّة المفارق؛ أملك هو أم شيطان/ جنّي؟ ولعلّ ما جاء في مدوّنة الحلبي كفيل بإبراز هذا الحرج «... فإن قيل بهذه الأمور علم صلى الله عليه وسلم أنّ جبريل ملك لا جنّي، فمن أين علم أنّه يتكلّم عن الله تعالى؟»[62].

60- أطلق م. إلياد (Eliade,M) على هذه الظاهرة تسمية «الجبل الكوني» (la montagne cosmique)، انظر: Eliade, (M), le sacré et le profane, chap 1: l>espace sacré et la sacralisation du monde, p. 25-61. وتفطّن س. فيلد (wild Stefan) إلى أنّ النزول والإنزال والتنزيل يفترض تقسيم الفضاء إلى أعلى/ الله، وأدنى/ البشر. «the terms nuzùl, tanz?l and <inz?l make sense in a space in which there is an above and a below... God is in heaven and the prophet is on earth. This concept is dear to Judaism, Christianity and Islam. When God speaks to the prophets, they try to come closer to God by ascending a mountain ``wild Stefan: spatial and temporal implications of the qur>?nic concept of nuzùl tanz?l and <inz?l>>. (p. 141) in: S. Wild, the qur>?n as text, Brill, 1996. وقد ردّ سبينوزا هذه الظاهرة إلى اعتقاد الأنبياء بأنّ الله يقطن السموات؛ فـ«موسى صعد إلى أعلى الجبل ليتحدّث مع الله، وهو ما لم يكن في حاجة إلى أن يفعله لو استطاع أن يتصوّر الله موجوداً في كلّ مكان». رسالة في اللاهوت والسياسة، ص163-164.

61- ابن هشام، ج1، ص151.

62- الحلبي، السيرة الحلبيّة، ج1، ص247.

إنّ الجمع بين أن يكون اللقاء داخل غار حراء ومحمّد في حال النوم، وبين أن يكون خارج الغار ومحمّد في حال اليقظة، هو جمع غايته التوفيق بين ما أثر عن المسلمين في ما يتعلّق بقصّة الغار، وما جاء في القرآن من وصف للقاء محمّد بالمفارق: {عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى *ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى *وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى *ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى *فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى *فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى *مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى *أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى} [النجم: 53/5-12].

بغضّ النظر عن الإشكاليّات التي تثيرها هذه الآيات، ولا سيّما في ما تعلّق بهويّة المفارق وبطبيعة الإدراك؛ رؤية هو أم رؤيا، فإنّ الإشارة فيها واضحة إلى أنّ الإطار هو الأفق الأعلى. وتضيف (آية التكوير 81/23): {وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ}. عُدّت هذه الآيات محدّثةً عن بدء الوحي[63]، ومن ثمّة لا بدّ من التوفيق بين كون المفارق في الغار ماثلاً أمام محمّد، وكونه في الأفق صائحاً في محمّد؛ ألا يعني ذلك أنّ مدوّنة السيرة كانت منشغلةً بما جاء في القرآن، منفتحةً على مدوّنة التفسير وهي تُحدّث عن محمّد؟

- لقد تعدّدت المواقف بشأن خبر لقاء محمّد بالمفارق؛ فمال بعض المعاصرين إلى إنكار قصّة الغار أصلاً، والاكتفاء بما يذكره القرآن من لقاء تمّ في الفضاء الفسيح[64]، واكتفى آخرون بمجرّد سرد الروايات المختلفة حول إطار اللقاء[65]، وتولّى فريق ثالث إغفال اللقاء الدائر خارج الغار. والحقيقة أنّ هذه المواقف كلّها لم تنظر إلى تجربة الوحي المحمّدي إلّا باعتبارها منبثقةً فجأةً، ومن ثّمة حاولت الوقوف على حدث يمكن عدّه بدء الوحي. والراجح عندنا أنّ الوحي كان على التدريج، ونحن نفترض صحّة الرواية الجامعة بين اللقاء داخل الغار واللقاء خارجه إلّا أنّ الترتيب يظلُّ محرجاً؛ فلا وجه لتقديم تبدّي المفارق المفاجئ في الغار وما صحب ذلك من إقراء عنيف على اللقاء خارج الغار؛ والأحرى أنّ محمّداً طفق في بدء أمره يسمع نداءات، ويرى رؤيا اليقظة كائنات عَدَّها مصدر الأصوات تناديه؛ وتلبّس هذا الأمر بمخيلته، وظلّ ينفي ويثبت حتى كان لقاء الغار. ونحن لا نعدّ لقاء الغار حلماً وإن جرى في المنام؛ بل هو رؤيا وجد محمّد حرارتها في قلبه فأفاق «هببت من نومي وكأنّما صوّر في قلبي كتاب».

إنّ مجمل أمر محمّد يتناسق وهذا الترتيب الذي نقترح للأحداث؛ فأمر الوحي بدأ عنده على التدريج، وأفكاره عن الكتاب (المقروء/ اقرأ) وضرورته ما فتئت تلحُّ عليه، وكأنّما النداء الذي كان يسمعه هو صدى تشوّقه إلى التكليف بالرسالة. أمّا لقاء الغار، فهو التكليف وقد حصل؛ وردّ فعل محمّد نفسه إزاء ذلك يكشف عن تصاعد نسق الأحداث.

63- انظر مثلاً: الطبري، جامع البيان، ج27، ص50. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج17، ص55-65. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج4، ص265-266.

64- جعيط، هشام، الوحي والقرآن والنبوّة، ص35-38.

65- راجع مثلاً: علي، جواد، تاريخ العرب في الإسلام، السيرة النبويّة، ص154-155.

▪ **صورة المفارق:** على الرغم من أنّ جلّ المصادر في السيرة متّفقة على أنّ من تبدّى لمحمّد أوّل أمره إنّما هو جبريل، فإنّنا اخترنا وسمه بـ «المفارق» لجملة من الأسباب منها:

- أنّ هويّة وسيط الوحي لم تتضح إلّا لاحقاً؛ فجبريل لم يُذكر إلّا في المرحلة المدنيّة. أمّا قبل ذلك، فقد وصف القرآن وسيط الوحي بأنّه «رسول» و«ملك» و«روح»[66]. ومن ثمّة نعتقد أنّ تحديد الروايات لشخص الوسيط نابع من قراءة لاحقة للأحداث.

- أنّ سلوك محمّد، وما عاناه من خوف وشكٍّ، يُنبِئ عن اضطراب إزاء تحديد هويّة هذا الوسيط وغايته؛ وهذا الاضطراب مردّه التباس منزلة هذا المفارق في وعي محمّد. ولعلّ ذلك ما سنزيده توضيحاً عند تناول سلوك محمّد.

وعلى الرغم من ذلك، عمدت الرواية التراثيّة إلى الحديث عن جبريل منذ لحظة بدء الوحي. ويقف الناظر في هذه المدوّنة على سمات تميّز بها المفارق/ جبريل نستشفّها من خلال روايات بدء الوحي، أو الأخبار المتصلة بتلك الفترة؛ وهي سمات لئن كشفت عن تصوّر أصحاب الروايات لخصائص المفارق، فهي تكشف كذلك عن ذهنيّة كامنة في مدوّنة السيرة.

بدت رواية بدء الوحي مقتضبةً في كلّ ما يتعلق بالمفارق، ولا نقف فيها إلّا على إشارتين موجزتين: تُحدّد الأولى هويّته: «جاءني جبريل وأنا نائم»، بينما تصفه الثانية وصفاً مقتضباً على اختلاف طفيف بين الروايات: «فإذا جبريل في صورة رجل صافٍّ قدميه في أفق السماء يقول: يا محمّد أنت رسول الله وأنا جبريل، فوقفت أنظر إليه وشغلني عن ذلك وعمّا أريد، فوقفت ما أقدر على أن أتقدّم ولا أتأخّر، ولا أصرف وجهي في ناحية من السماء إلّا رأيته فيها... فلم أزل كذلك حتى كاد النهار يتحوّل، ثمّ انصرف عنّي وانصرفت راجعاً إلى أهلي» (الرواية أ). و«رأى ملكاً واضعاً إحدى رجليه على الأخرى في أفق السماء يصيح: يا محمّد أنا جبريل يا محمّد أنا جبريل، فذعر رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك وجعل يراه كلّما رفع رأسه إلى السماء» (الرواية ج). «فلمّا قضيت جواري نزلت فاستبطنت الوادي، فنوديت فنظرت بين يدي وخلفي وعن يميني وعن شمالي فلم أرَ شيئاً، ثمّ نظرت إلى السماء فإذا هو على العرش في الهواء، فأخذتني رعدة -أو قال وحشة- فأتيت خديجة فأمرتهم فدثّروني» (الرواية د).

يقودنا تأمّل هذه الشذرات من الروايات إلى ملاحظة ما يأتي:

- يبدو أنّ هذه الشذرات في رواية بدء الوحي قد وردت في سياق تفسيري؛ فتحديد محمّد لهويّة زائره في حراء أثناء النوم يبرّره ما حصل لاحقاً: «يا محمّد أنت رسول الله وأنا جبريل»، كما أنّ انتهاء الرواية

66- Pedersen, (J.D), art: Djabr?>?l, dans EI 2.

بالخوف/ الرعدة، وطلب التدثّر، تطلّب حدثاً سابقاً خارقاً هو «رؤية المفارق على العرش في الهواء». ولعلّ ما يلفت نظرنا أكثر هو ما تغيّبه الروايات لا ما تستحضره؛ فمحمّد قد روى زيارة جبريل له في غار حراء أثناء النوم، ونقل الحوار الدائر بينهما، إلّا أنّه سكت عن وصفه أثناء ذلك؛ وكذا قلْ عن الرواية (و): «قال: أرأيتك الذي كنت حدثتك أنّي رأيته في المنام؟ فإنّه جبريل استعلن إليّ». أَيعني ذلك أنّ رؤيا المنام هي رؤيا لا تمكّن محمّداً من وصف جبريل، ومعنى ذلك أنّه لا يرى في المنام صورة؛ بل يسمع ويحسُّ فحسب، أم أنّ المخرج من ذلك كامن في القول: إنّه كان يرى في المنام صورة هلاميّة لا يتمكّن من إدراكها. ألا يكشف الغط والحوار الدائر بين محمّد والمفارق أنّنا إزاء مفارق في صورة بشريّة؟

لعلّ ذلك ما ابتغت الرواية التراثيّة تأسيسه؛ فالمفارق تدرّج في الانكشاف لمحمّد من رؤيا المنام إلى سماع الصوت إلى رؤية اليقظة، وعلّة هذا التدرج تدريب النبيّ على الاتصال، وتسكين روعه، كما يذهب إلى ذلك الحلبي[67].

- لقد مالت الرواية إلى تصوير المفارق، أثناء رؤية اليقظة، تصويراً ماديّاً محسوساً، واقتضى ذلك من المخيال الجمع بين سمات إنسانيّة محضة (في صورة رجل صافٍّ قدميه، واضعاً إحدى رجليه على الأخرى...) وسمات عجيبة، كالجلوس في الهواء والقدرة على الطيران والكينونة في آفاق السماء كلّها في آن (لا أصرف وجهي في ناحية من السماء إلّا رأيته فيها)، أو لعلّ ذلك كان بسبب عظم الخلقة.

ردّ بعض الباحثين العناية بتجلّي الملك المباشر إلى سببين: «سبب ديني يعتبر أنّ حدث نزول القرآن يستوجب بالضرورة ظهور الملك بشكل فعلي... وسبب ثقافي نفسي؛ فقد مالت الكافّة إلى إثبات الحدث المفارق بواسطة الصورة المفاجئة والعجيبة الكفيلة بإبراز القطع مع ما كان متداولاً من كهانة وسحر، ونشأة عجيب جديد مفارق إسلامي في مرجعيته يغذّي الوجدان»[68].

ولئن كانت هذه التصوّرات نابعة من الشعور بجسامة حدث نزول القرآن، ومن ثمّة نزّل القدامى ذلك الحدث في إطار من العجيب الخارق[69]، فإنّها إلى ذلك تصوّرات تنبع من نصّ القرآن ذاته؛ فالرواية الواصفة للمفارق تنهل ممّا جاء في سورة النجم (النجم 53/-5 12)، أو هي تفصيل لما ورد مجملاً، وتوسعة لما جاء مقتضباً في النصّ القرآني. فلا شكّ في أنّ وصف المفارق في صورة الطائر في الهواء ينسجم وما جاء في سورة فاطر: {*الْحَمْدُ لِلَّهِ فاطِرِ السَّماواتِ وَالأَرْضِ جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُباعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [فاطر 1/35]. نضيف إلى ذلك أنّ تلك التصوّرات نابعة

67- الحلبي، السيرة الحلبيّة، ج1، ص223.

68- الجزار، منصف، المخيال العربي في نصوص الخوارق المنسوبة إلى الرسول، ص352.

69- مال أهل السيرة إلى التعبير عن فذاذة الحدث بالقول: إنّ الرسول لم يرَ الملك على صورته الحقيقيّة إلا مرّتين؛ عند بدء الوحي وعند الإسراء، انظر مثلاً: الحلبي، السيرة الحلبيّة، ج1، ص247.

أيضاً من الأخبار المتعلقة بجبريل في غير هذا الموضوع؛ فلمّا كانت لجبريل القدرة على التجسّد في هيئة البشر، وهي قدرة تجلّيها أخبار من مثل تعليمه الوضوء لمحمّد، أو تبدّيه في صورة دحية الكلبي[70]، فمن الحريّ أن يظهر جبريل لمحمّد أوّل مرّة في شكل «رجل صافٍّ قدميه». إنّ لجبريل القدرة على الحؤولة والتشكّل في أيّة صورة شاء، ولا ضير، فتلك خصيصة الكائنات الأخرى المفارقة في المخيال الجاهلي، كالجنّ مثلاً[71].

- لكنّ الرواية (د) تلفت النظر بما أجملته من وصف «نوديت..ثمّ نظرت إلى السماء فإذا هو على العرش في الهواء، فأخذتني رعدة فأتيت خديجة فأمرتهم فدثروني». إنّ الضمير «هو» لا يعود على مُسمّى سبق ذكره، وإنّما هو تسمية ملتبسة لكائن ملتبس. وكثيراً ما يرد هذا الضمير محيلاً على الله في الخطاب القرآني؛ فهل يتعلق الأمر بالتباس في وعي محمّد ظنّ معه أنّه إنّما رأى الله؟ إنّ وصف المفارق «على العرش» يرجّح مثل هذه القراءة؛ لأنّ العرش من متعلّقات الله في القرآن، وهو الذي يستوي على العرش. أمّا الملائكة، فتحفّ بالعرش أو تحمله[72].

ومن المفيد الإشارة إلى أنّ آيات سورة النجم السالف ذكرها، والتي عُدّت محدّثةً عن بدء الوحي، توحي بأنّ المتجلّي إنّما هو الله. وقد أنفق أهل التفسير جهوداً مضنيةً في تخريج الضمائر، ومعالجة الجمل بالتقدير والحذف وغيرهما من الافتراضات النحويّة؛ لحمل مقطع النجم على الدلالة على جبريل لا على الله[73].

فهل تعلّق الأمر بالتباس في وعي محمّد بين أن يكون قد رأى الله، أو أن يكون قد رأى رسولاً عن الله؟ وبذلك الالتباس نبرّر هلع محمّد ورعدته حتى طلب الدثار. إنّ التدثّر يرجّح كذلك هذه القراءة؛ فهو ليس طلباً للدفء وطرداً لرعدة الخوف فحسب[74]؛ بل هو كذلك عادة سامية لحماية الجسد الإنساني عند الاقتراب من الله[75]. ويبدو أنّ محمّداً لم يتدثّر بسبب ما أخذه من الرعدة؛ لأنّنا نراه قد واظب على التدثّر في بدء أمره؛ فقد جاء في خبر إسلام أبي ذر الغفاري ما يأتي: «انطلق أبو ذر وبريدة، معهم ابن عم لأبي ذر يطلبون رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بالجبل مكتتم، بطائفة من مكّة. وأتوه وهو نائم في الجبل مسجّى بثوبه...»[76].

70- ابن هشام، ج3، ص135.

71- ذلك ما لاحظه الحلبي بقوله: «يجوز أنّ الله تعالى جعل في الملائكة القدرة على التبلور والتشكل بأيّ شكل أراده كالجن». السيرة الحلبيّة، ج1، ص242.

72- (طه: 5/20)، (الزمر: 75/39)، (غافر: 7/40)، (الحديد: 4/57)، (الحاقة: 17/69).

73- نمثل لذلك بمقالة الطبري في تفسير الآية {فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى} [النجم: 10/53]: «وأولى القولين عندنا بالصواب قول من قال: معنى ذلك: فأوحى جبريل إلى عبده محمّد صلى الله عليه وسلم ما أوحى إليه ربّه». جامع البيان، ج27، ص58. راجع كذلك الحرج الذي عاناه القرطبي في تأويل دلالة الضمائر حتى لا تفيد معنى رؤية الله. الجامع لأحكام القرآن، ج17، ص55-62.

74- يبدو أنّ عادة التدثّر كانت لتوقي العرواء: «عن أبي سلمة قال: كنت أرى الرؤيا أعرى منها غير أنّي لا أزمّل...». صحيح مسلم، كتاب الرؤيا.

75- وات، مونتغمري، محمّد في مكة، ص89-90.

76- ابن إسحاق، ف180، ص122.

ولكن هذا الالتباس انجلى لاحقاً حين توضّحت أطراف الوحي، وتنزّه الله عن الرؤية تنزّهاً عظيماً.

- إنّ عظمة المفارق في ما تصف رواية السيرة كانت عظمة بالغة، حتى أنّه قد سدّ (بجسمه؟) آفاق السماء، وكان في كلّ ناحية منها؛ ومع ذلك لم يره من أهل مكّة أحد سوى النبي، ولم يسمع نداءه أحد سواه. يضيف هذا الأمر إلى طبيعة المفارق ملمحاً سيتأكّد بتقادم العهد بالوحي هو أنّ تجربة الاتصال بالمفارق هي تجربة ذاتيّة يعيشها النبيّ وحده، ولا يمكن الاستدلال عليها إلّا من خلال شهادة النبي؛ ويبدو هذا الأمر في غاية الطرافة إذا نظرنا إليه من زاوية متقبّلي الدعوة النبويّة الأوائل. إنّ محمّداً يدّعي أنّه على صلة بملك يوحي إليه أخبار السماء، ويلقّنه الحكمة الإلهيّة، وينقل إليه أوامر ربّه. أمّا الدليل على حصول ذلك الاتصال، فهو إقرار محمّد بحصوله! لقد كان محمّد في نظر المشركين الأوائل خصماً وحكماً في الآن نفسه في الجدل الدائر؛ لذلك أصرّوا دوماً على آية خارجيّة يؤيّد بها محمّد دعواه[77]. ونحن نجد صدى خصوصيّة دعوى محمّد هذه في سياق الآيات التي عُدّت متحدثةً عن بدء الوحي في سورة النجم: {أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى ما يَرَى} [النجم 12/53].

للمزيد من التبسيط نصوغ ما تقدّم في العبارة الآتية: الدليل عند محمّد على أنّه رأى المفارق إخباره القوم أنّه قد رآه. وسيثير هذا الأمر إشكاليّات عديدة متعلقة بالمتلقين الأوائل للنصّ من المشركين ننظر فيها لاحقاً.

- لا يتعلق الأمر بالمشركين فحسب؛ فحتى «صحابة» محمّد الخلّص لم يتمكّنوا من رؤية المفارق في بدء الوحي في أيّة صورة[78]. جاء في سيرة ابن هشام: «قال ابن إسحاق: وحدثني إسماعيل بن أبي حكيم مولى آل الزبير، أنّه حدّث عن خديجة رضي الله عنها أنّها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أي ابن عم، أتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك؟ قال: نعم، قالت: فإذا جاءك فأخبرني به. فجاءه جبريل عليه السلام كما كان يصنع، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لخديجة: يا خديجة هذا جبريل قد جاءني. قالت: قم يا بن عمّ فاجلس على فخذي اليسرى، قال: فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس عليها، قالت: هل تراه؟ قال: نعم، قالت: فتحوّل فاجلس على فخذي اليمنى، فقالت: فتحوّل رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس على فخذي اليمنى، فقالت: هل تراه؟ قال: نعم. قالت: فتحوّل فاجلس في حجري، قالت: فتحوّل رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً في حجرها، قالت: هل تراه؟ قال: نعم، قال: فتحسّرت وألقت

77- {فَلَعَلَّكَ تارِكٌ بَعْضَ ما يُوحَى إِلَيْكَ وَضائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّما أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} [هود: 12/11]. كذلك: (الفرقان: 21/25)، و(الإسراء: 90/17-93).

78- لم يتمكن الصحابة من رؤية الوسيط إلا لاحقاً (بعد تركيز الدعوة) في صورة آدميّة، ولعلّ صورة دحية بن خليفة الكلبي أشهرها. انظر مثلاً: ابن هشام، ج3، ص135.

خمارها ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في حجرها، ثمّ قالت له: هلّا تراه؟ قال: لا، قالت: يا بن عمّ اثبت وأبشر. فوالله إنّه لملك، وما هذا بشيطان»[79].

على الرغم من آثار الاختلاق في هذا الخبر، ولا سيّما تأكيده غياب الملك عند سفور خديجة، ولذلك علاقة واضحة «بآداب النساء» في الإسلام لاحقاً، فإنّه خبر أنموذجي في التأصيل لظاهرة الرؤية الذاتيّة عند محمّد. فخديجة الزوجة والصاحبة والحامية والمؤمنة؛ إذ تشارك في اختبار هويّة المفارق فإنّها لا تراه؛ بل تكتفي بسؤال محمّد «هل تراه؟». وهذا الأمر إن كان مدخلاً للرفض عند المخالفين، فهو على العكس مدخل للتصديق عند التابعين لمحمّد؛ فهو نبيّهم لأنّه وحده يتمكّن من رؤية المفارق، وتلك خصلة تزيد مرتبة محمّد قداسةً، وتزيد المتعالي تعالياً.

- يحيلنا ما سلف إلى خصيصة أخرى شكّلت صورة المفارق المتبدّي لمحمّد، تمثّلت في تأكيد روايات السيرة المتأخّرة أنّ هذا المفارق لم يكن معروفاً لدى أهل الجاهليّة، ولم يكن معروفاً كذلك لدى محمّد. جاء في الخبر عن خديجة أنّها أوّل ما فعلت عند إخبار محمّد إيّاها بتبدّي جبريل، أنّها «انطلقت من مكانها فأتت غلاماً لعتبة بن ربيعة بن عبد شمس، نصرانيّاً من أهل نينوى يُقال له عداس، فقالت له: يا عداس أذكرك بالله إلّا ما أخبرتني: هل عندك من علم بجبريل؟ فقال: قدوس قدوس، ما شأن جبريل يذكر بهذه الأرض التي أهلها أهل الأوثان. فقالت: أخبرني بعلمك فيه. قال: فإنّه أمين الله بينه وبين النبيين، وهو صاحب موسى وعيسى عليهما السلام»[80].

نظنُّ أنّ الخبر مختلَق لسببين: الأوّل أنّنا نميل إلى القول إنّ محمداً لم يدرك منذ بدء الوحي أنّ زائره هو جبريل؛ والثاني أنّه من العسير القول إنّ أهل الجاهليّة، بمن فيهم محمّد، كانوا جاهلين بجبريل[81]، والحال أنّهم كانوا على صلة بأهل الكتاب، وعلى علم بالملائكة، وكان جبريل من أهمّ الملائكة في اليهوديّة؛ بل هو رسول الله عادةً إلى البشر[82].

فليس للخبر إذاً من غاية سوى تأكيد أنّ محمداً كان فقير المعارف الدينيّة قبل بدء الوحي، وذلك ما لا يستقيم مع ما نعرف عن حياة محمّد قبل البعثة. وقد اعتقد أهل السيرة أنّ إنكار إلمام محمّد ببعض المعارف الدينيّة السائرة في عصره، المتاحة لمثله، كفيل بضمان صدقه ومعجزته.

79- ابن هشام، ج1، ص171-172. وقد استنتج الحلبي من ذلك أنّ «الشيطان لا يتمثّل بجبريل». السيرة الحلبيّة، ج1، ص233.

80- ابن كثير، السيرة النبويّة، ج1، ص406. كذلك: الحلبي، السيرة الحلبيّة، ج1، ص233. وهو خبر غائب عند المصنّفين في السيرة الأوائل. وقد رام الإخباريون المتأخّرون من خلال هذا الخبر إثبات اختصاص جبريل بالرسالة بين الله وأنبيائه من البشر.

81- ذلك ما حاول السهيلي تأكيده بقوله: «ولم يكن جبريل معروفاً بمكة ولا بأرض العرب». الروض الأنف، ج1، ص156.

82- Pedersen, art: Djabr?"?l, dans EI 2.

- إنّ سلوك المفارق إزاء محمّد، كما تصوّره رواية السيرة، يعضّد هدف تأكيد صدق محمّد؛ فقد مالت الرواية السائدة إلى نحت صورة مفارق **عنيف** في تبليغ الوحي: «جاءني (جبريل) وأنا نائم فقال: اقرأ فقلت: وما أقرأ! فغتّني حتى ظننت أنّه الموت ثمّ كشطه عني. فقال: اقرأ. فقلت: ما أقرأ! فعاد لي بمثل ذلك. ثمّ قال: اقرأ. فقلت: وما أقرأ؟ وما أقولها إلّا تنجياً أن يعود لي بمثل الذي صنع بي...»[83].

ما الذي يدفع المفارق إلى أن يكون على هذا النحو من الشدّة؟

يبدو أنّ ما سمح بنشوء مثل هذه الصورة أمران متعالقان: أوّلهما تأكيد أنّ الوحي المحمّدي مفروض على محمّد من الخارج فرضاً، وحينئذ «تصبح هذه الشدّة الممزوجة بالقوّة في تجلّي جبريل دالّة على طبيعة المعجزة التي ليست من فعل الرسول، وهي بذلك مؤكّدة لصدق دعوى النبوّة»[84]. وثانيهما الاستئناس بالقرآن في إخراج صورة المفارق على ذلك الوجه؛ فقد وُصف وسيط الوحي بأنّه {شَدِيدُ الْقُوَى} [النجم: 5/53]، وأنّه {ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ} [التكوير: 20/81]. نُضيف إلى ذلك أنّ المفسّرين مالوا في تفسير الاسم (جبريل) إلى أنّه يحيل على الشدّة والقوّة[85].

لكنّ الناظر في مصنّفات السيّرة المتأخّرة يُلاحظ نشوء رواية تروم رسم صورة مغايرة له قوامها لطف الملك وطمأنينة محمّد: «كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول: أجلسني على بساط كهيئة الدرنوك فيه الياقوت واللؤلؤ، فبشّره برسالة الله عزّ وجلّ حتّى اطمأنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له جبريل: اقرأ. فقال: كيف أقرأ؟ قال: اقرأ باسم ربّك الذي خلق...» (الرواية (و)). ويضيف الحلبي قائلاً: «طلع جبريل من المشرق فسدّ الأفق إلى المغرب فخرّ النبيّ مغشيّاً عليه، فنزل جبريل عليه السّلام في صورة الآدميين وضمّه إلى نفسه، وجعل يمسح الغبار عن وجهه»[86].

هكذا إذاً يكون جبريل منذ البدء صاحباً رفيقاً حميم الصّلة بمحمّد، والطّريف أنّه يتشكّل منذ البدء في صورة آدميّة، وهو ما يناقض السّائد من الرّوايات القائلة: إنّ محمّداً رأى الملك بدء الوحي على صورته الحقيقيّة. ونعتقد أنّ المتأخّرين قد أُحرجوا بالخبر المأثور عن خوف محمّد النّاشئ عن لقاء المفارق، فكان المخرج عندهم باستنشاء صورة جديدة للمفارق لا تبعث على الخوف والشكّ؛ بل تبعث في محمّد الطمأنينة، وتثبّت قدمه في تلقّي الوحي. ذلك ما سنفصّل القول فيه عند التعرّض إلى سلوك محمّد أثناء حدث بدء الوحي.

83- راجع الروايتين (أ) و(ب) مطلع هذا الباب.

84- الجزّار، منصف، المخيال العربي في نصوص الخوارق المنسوبة إلى الرسول، ص364.

85- من اللافت أنّ المفسّرين المسلمين قبلوا قول اليهود إنّ جبريل «ملك الغلظة والإعسار والتشديد والعذاب»، ولم يناقشوا إلا قولهم بعداوة جبريل. انظر: تفسير الآية {قُلْ مَنْ كانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلى قَلْبِكَ} [البقرة: 97/2] ضمن: الطبري، جامع البيان، ج1، ص496. كذلك: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج2، ص26-28.

86- الحلبي، السيرة الحلبيّة، ج1، ص247.

نخلص ممّا تقدّم إلى إثبات بعض النتائج:

1- لقد سيطرت سمة «الجمع والتبرير» على مدوّنة السّيرة قديماً، فجمعت بين روايات متناقضة مختلفة، وسعت إلى تبرير ذلك الاختلاف تبريراً توفيقيّاً. وقد قادت تلك السمة مدوّنة السيرة إلى التمييز قسراً بين بدء الوحي وبدء التنزيل، وبين بدء النبوّة وبدء الرّسالة، وبين صحبة إسرافيل وصحبة جبريل؛ وهي تمييزات لا أساس لها في التجربة المحمّديّة. كما سيطرت على تلك المدوّنة نزعة قياس الوحي المحمّدي على الوحي السابق، فالتجأت إلى القول بتلقّي الوحي باعتباره كلمةً واحدةً، وإلى القول كذلك بنزوله منجّماً.

2- إنّ بدء الوحي قد تنزّل في سياق زمني نفسيّ تميّز بشدّة العزلة وطول التحنّث، كما تميّز ببداية حلول خواطر نفس محمّد وأسئلته الداخليّة في العالم الخارجي، فطفق يتلقّط الإشارات، ويتسمّع الأصوات، ويؤوّل الأمارات في يقظته، حتى كان لقاء الغار في المنام تأكيد حصول التكليف.

3- إنّ ضبط تاريخ بدء الوحي قد تمّ بعين إسلاميّة (قراءة بعديّة). والراجح أنّ محمّداً أُوحي إليه، وقد تمّ عقله، وحنكت تجربته، واستوى رأيه، واصطلح القدامى على ذلك بسنّ الأربعين، فكانت سنّ الأربعين تحدّد حالاً ولا تضبط سنّاً. والرّاجح لدينا أيضاً أن يكون الوحي قد بدأ في شهر رمضان، دون أن يعني ذلك أنّ محمّداً قد خصّ هذا الشهر بالتحنّث وميّزه، لكنّ فترات تحنّثه بدأت تطول وتختلف نسقاً وزمناً. أمّا شهر ربيع الأوّل، فلا علاقة له ببدء الوحي. وقد اختار محمّد، وهو يطلب الوحي، مكاناً نموذجيّاً للاتصال بالمفارق: الجبل بتعاليه والغار بظلمته، لم يشذّ في ذلك عن سنّة المتّصلين بالغيب في البيئة الجاهليّة وفي غيرها.

4- إنّ صورة المفارق تكشف عن التباس في وعي محمّد بين أن يكون قد رأى الله، أو أن يكون قد رأى مفارقاً وسيطاً؛ إلّا أنّ الرؤيا ثابتة لديه باعتبارها قناعةً بحدث اتّصال، لكنّها رؤيا ذاتيّة لا يمكن الاستدلال عليها، وهي سماع من الغير ولا شاهد؛ تلك هي المعضلة.

المصادر والمراجع

المصادر:

- القرآن الكريم.

- ابن إسحاق، كتاب المبتدأ والمبعث والمغازي المُسمّى سيرة ابن إسحاق، تحقيق وتعليق محمّد حميد الله، الوقف للخدمات الخيريّة، قونيه/ تركيا، 1981م.

- ابن كثير، إسماعيل، السيرة النبويّة، تحقيق مصطفى عبد الواحد، دار المعارف، بيروت، 1971م.

- ابن هشام، عبد الملك، السيرة النبويّة، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 2000م.

- جعيط، هشام: في السيرة النبويّة (1) الوحي والقرآن والنبوّة، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1999م.

- الحلبي، علي بن برهان الدين، إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون (المعروف باسم السيرة الحلبيّة)، مطبعة مصطفى بابي الحلبي، 1349هـ.

- الدّشتي، علي، 23 عاماً: دراسة في السيرة النبويّة المحمديّة، عرّبه ثائر ديب، نشر رابطة العقلانيين العرب، بترا، سورية، ط1، 2004م.

- السهيلي، عبد الرحمن، الروض الأنف، تحقيق عبد الرحمن الوكيل، دار النصر، 1967م.

- علي، جواد، تاريخ العرب في الإسلام: السيرة النبويّة، مكتبة النهضة العربيّة، بغداد، ط1، 1983م.

- وات، مونتغمري، محمّد في مكّة، تعريب شعبان بركات، المكتبة العصريّة، بيروت، (د.ت).

المراجع:

في اللسان العربي:

- ابن أنس، مالك، الموطّأ، مكتبة التقوى، القاهرة، ط1، 2001م.

- ابن عربي، أبو بكر، أحكام القرآن، تحقيق علي محمّد البجاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت).

- ابن كثير، إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، دار المعرفة، بيروت، ط3، 1989م.

- الأصبهاني، أبو نعيم، دلائل النبوّة، حيدر أباد، ط2، 1950م.

- البخاري، أبو عبد الله، الصحيح، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت).

- الجزار، منصف، المخيال العربي في نصوص الخوارق المنسوبة إلى الرسول، نسخة مرقونة في كلّيّة الآداب في منوبة، 2003م، (دكتوراه دولة).

- الخوني، الصادق، ملابسات بداية نزول الوحي على الرسول محمّد صلى الله عليه وسلم، مجلة جامعة الزيتونة، ع2، 1993م.

- سبينوزا، رسالة في اللّاهوت والسياسة، تعريب حسن حنفي، دار الطليعة، بيروت، ط4، 1988م.

- الطبري، أبو جعفر:

* تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار سويدان، بيروت، (د.ت).

* جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 2001م.

- عامر، جيهان، بدء الوحي من خلال المصادر الشيعيّة الاثني عشريّة: بحار الأنوار للمجلسي أنموذجاً، نسخة مرقونة في كليّة الآداب في منوبة (ماجستير)، 2005م.

- علي، جواد، تاريخ العرب قبل الإسلام، مطبعة المجمع العلمي العراقي، 1955م.

- القرطبي، أبو عبد الله، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب العلميّة، بيروت، (د.ت).

- القزويني، زكرياء، عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت).

- المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار الجامعة لدرر الأخيار الأئمة الأطهار، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1983م.

- مسلم، أبو الحسين، المسند الصحيح، دار الفكر، بيروت، ط1، 2000م.

في اللسان الأعجمي:

- Adrien, (Leites), Temps béni et temps transhistorique: deux conceptions religieuses du temps dans la tradition musulmane, dans Studia Islamica, n° 89, 1999, p 23-41.

- Benslama, (Fethi), La nuit brisée, Muhammad et l'énonciation islamique, ed. Ramsay, Paris, 1988.

- Eliade, (Mircea), Le sacré et le profane, Gallimard, 1965.

- Encyclopédie de L'Islam (ed. Ang: EI 1), Articles: S?ra (W. Raven)/Sawm (C. C. Berg)/Wahy (A. J. wensinck).

- Encyclopédie de L'Islam (ed. Fr: EI 2), Articles: Djabr?'?l (J. Pedersen)/ Ramad?n (M. Plessner)/ Wahy (A. J. Wensinck).

- Jadaane, (fehmi):

- la place des anges dans la théologie cosmique musulmane, dans studia Islamica, n° 41, Paris, 1975.

- Wild, (stephan), sptial and temporal implications of the Qur'a$nic concepts of nuz?l, tanz?l and 'inza$l, in Wild (stephan), the Qur'a$n as text, E.J Brill, 1996, p. 137-153.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2019

All rights reserved © 2019